نحو تأصيل الفكر الإسلامي

[1]

المدخل الفطري

إلى التوحيد

محمد السعيد مشتهري

الكتــاب: المدخل الفطري إلى التوحيد

المؤلـف : محمد السعيد مشتهري

الطبعـة : الأولى . القاهرة 2009

الناشــر: دار الفكر الإسلامي

رقم الإيداع: 2009/23347

الترقيم الدولي: 5-74-5378-977

Π

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [102]
وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ
أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ
مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [103]
وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ
وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [104] وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [105] يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ
وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ [106] وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ
اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [107] تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ [108]

ω

[آل عمران102–108]

مسيرتي الفكرية

نشأت في بيئة دينية، وعملت في مجال الدعوة الإسلامية بين طلاب الجامعات المختلفة، وكان لي درس أسبوعي في أحد المساجد الكبرى، بقلب العاصمة، يحضره نخبة من هؤلاء الطلاب، وغيرهم. وكان هذا الدرس يقوم على محاور ثلاثة، هي: منهج محاسبة النفس، منهج القرآن التربوي، منهج السنة التربوي، حسب مذهب "أهل السنة والجماعة"، بوصفها الفرقة التي ولدت فيها، وتعلمت من أمهات كتبها. وقد صدر أول مؤلف لي في عام [1973م] بعنوان: "روح وريحان".

وفي أوائل الثمانينيات طُلب مني أن أشرف على إعداد موسوعة في المعاملات الإسلامية فقبلت وسعدت بهذا العمل إذ الاقتصاد هو "العمود الفقري" لأية حضارة.

ولإعداد الدراسة التمهيدية، والمنهج الذي سأتبعه في معالجة أبواب هذه الموسوعة قمت بقراءة عدد من أمهات كتب التفسير والحديث والفقه، وعقدت عدة لقاءات مع العلماء المتخصصين في أبوابها، للوقوف على مدى توافق مصطلحات السلف مع المصطلحات التجارية الفنية المعاصرة.

وفي أثناء الإعداد للدراسة التمهيدية لهذه الموسوعة، وجدت نفسي أمام مشكلات منها:

1. عندما نظرت في كتاب الله وجدت أن الآيات الخاصة بالمعاملات المالية والتجارية لا تتعدى بضع آيات، تقيم القواعد، وتضع الأصول العامة التي يجب أن يقيم عليها المسلمون نظام حياتهم ومعاملاتهم المالية والتجارية.

وعندما نظرت في كتب الفقه، والأحاديث، المنسوبة إلى رسول الله، وجدت أن معظم أبوابها ملئت بفروع وتفصيلات تعكس طبيعة هذه المعاملات وارتباطها بالظروف البيئية التي كانت معاصرة لها.

2. لقد تطورت المعاملات المالية والتجارية على مر العصور، وتعقدت أشكالها وأساليبها، ليس فقط من الناحية الشكلية، ولكن أيضا من الناحية الأصولية الموضوعية. لذلك جاء علماء المذاهب المختلفة بتأويلات متعسفة لإسقاط نصوص التراث على واقعهم المعاصر. لقد أفرغوا نصوص هذا التراث من مضمونها فأصبحت بلا فاعلية.

ويكفي أن نعلم أن رأس مال المسلم في عصر الرسالة كان ما يملكه في بيته من حبوب، وأنعام..، وكانت معظم المعاملات تتم وفق نظام المقايضة، وكان إخراج الزكاة من جنس هذه السلع يعمل في صالح النظام الاقتصادي للمجتمع.

أما الآن وقد تغيرت الأوضاع الاقتصادية للمجتمعات، ولم يعد لنظام المقايضة وجود في الأسواق المحلية والدولية، واستبدل الدرهم والدينار بأوراق نقدية..، يكون من الغبن إخراج الزكاة حبوبا، فالفقير والمسكين اليوم صارت معظم التزاماته وأعبائه مالية نقدية لا تسدها الأموال العينية، كالحبوب وغيرها، التي لو أراد بيعها لخسر نصف قيمتها في أحسن عروض الشراء!!

3. أن زكاة المال فريضة على كل مسلم، وإذا كان رسول الله، عليه السلام قد حدد نسبة الحق المعلوم فيها، وفق مقتضيات عصره وبصفته ولي أمر المسلمين، فهذا لا يعني أن هذه النسبة أصبحت فريضة واجبة الاتباع إلى يوم الدين.

ذلك أن مقدار الزكاة يحكمه متغيرات كثيرة مرتبطة بقيم الأموال التي تشكل أوعية الزكاة وتغيرها، كاستحداث أموال جديدة، واختلاف ما يخص الفرد من الدخل القومي من دولة إلى أخرى..، إلى آخره.

فهل كُتب لهذه القيم المالية الثبات، على مر العصور، أم اختلفت اختلافا كبيرا؟! فهل ثمن الشاة اليوم يساوي خمسة دراهم؟!

وهل الذي يملك مائتين من الدراهم يعد في هذا العصر غنيا، كمن يملك ثلاثين من البقر، فيتساوى الاثنان في وجوب إخراج الزكاة؟!

وهل النصاب الشرعي للفضة اليوم يساوي الأنصبة الأخرى؟! وهل المسلم الذي يملك عشرين دينارا من الذهب في سويسرا يعد غنيا يجب عليه إخراج زكاتها، كمن يملك هذا النصاب في قرية يعيش أهلها تحت مستوى الفقر؟!

هل قيمة الزكاة المفروضة على الذهب والفضة [ربع العشر] وما يسمى اليوم بوعاء عروض التجارة، هل هذه النسبة إذا قامت بإصلاح حال الفقراء في بلد تكفي لإصلاح حالهم في بلد آخر؟! وكيف يكون الحال والتعامل الآن أصبح بعملات ورقية لا غطاء حقا لها؟! إذن فلماذا لا تكون الحكمة من عدم تحديد القرآن لقيمة أو لنسبة هذا الحق المعلوم، أن يتحرك هذا الحق مع تحرك مستوى الدخل القومي للبلاد؟!

إن تحديد هذا الحق المعلوم، مرتبط ارتباطا وثيقا بخبرات المتخصصين في هذا المجال، وحسب متطلبات وإمكانات كل عصر.

4. إن المسلم الذي يريد أن يعلم حدود وطبيعة الغش التجاري ومشروعية الاحتكار... في عصر الانفتاح الاقتصادي والعولمة، والثورة المعلوماتية وشبكة الاتصالات المفتوحة، وتطور طبيعة وأساليب التجارة العالمية والتحديات الاقتصادية والمالية المعقدة..، هل يمكن أن يجد في اجتهادات السابقين ما يتعلم منه كيف يواجه هذه التحديات؟!!

لقد أصبحت معايش المسلمين تخضع لأساليب التجارة العالمية وآلياتها، فلماذا لا يضع فقهاؤهم نصب أعينهم تبعيتهم لهذا النظام العالمي الحاكم لاقتصاديات الأمم ومقدراتها، فيقيموا فتاواهم على الأصول والقواعد القرآنية الحاكمة لهذه المعاملات والصالحة لكل زمان ومكان؟!

5. لقد عالج فقهاء المذاهب معظم أحكام المعاملات المالية، برؤى مذهبية فالحرام عند مذهب حلال عند آخر، وإذا كان ترجيح مذهب على آخر يرضي أتباع المذهب فإنه غير ملزم لأتباع المذاهب الأخرى.

لذلك نجد أن مئات الصفحات، بل والمجلدات، ملئت بإشكاليات ومناظرات للرد على المخالف في المذهب، وجاءت معظم هذه المعالجات الفقهية تلبي تحديات ومتطلبات عصور أئمة هذه المذاهب الفقهية المختلفة.

6. إن النظام المالي والاقتصادي في الإسلام ليس علما أكاديميا مذهبيا يُدَرّس في المؤسسات التعليمية، وإنما هو أبسط وأيسر من ذلك بكثير.

إنه نظام أخلاقي، ينبع من الدستور الأخلاقي العام الذي جاءت به جميع الرسالات ليقيم النفس الإنسانية على ميزان الحق والعدل الإلهي.

إن العبودية الخالصة لله تعالى، والتقوى، والخشية، والعمل الصالح والصبر والحكمة والإيثار، والكرم، ورفع الضرر، والنهي عن الغش والاحتكار وغيرها من الضوابط والقيم والمقاصد الشرعية، كل ذلك جاءت به الرسالات الإلهية لتحكم تصرفات وتعاملات الناس في كافة مناحي الحياة، وعلى مرّ العصور.

إن النظام الاقتصادي في الإسلام مكون رئيس من مكونات الشخصية الإسلامية.

إن النظام المالي والاقتصادي في الإسلام يقيمه الربّانيون، الذين تشربت قلوبهم نصوص "الآية القرآنية"، فوقفوا على عطائها الذي لا ينفد، هذا العطاء الذي يضمن للناس سعادتهم، وتقدمهم في كافة مجالات الحياة.

7. إنه بعد الوقوف على إشكاليات الأحاديث المنسوبة إلى النبي، والخاصة بأبواب الاقتصاد والمعاملات المالية، وكيف عالج فقهاء السلف مسائل هذا الباب معالجة تخلفت كثيرا عن مقتضيات عصرنا..، اعتذرتُ عن العمل في إعداد "موسوعة الاقتصاد الإسلامي"، بعد قناعتي بوجوب إعادة النظر أولا في الأصول التي قام عليها إيماني الوراثي، والبحث عن السبيل الموصل إلى إيمان علمي يقيني.

قررت أن أتفرغ تفرغا تاما لإعادة بناء إيماني على أسس علمية، بعيدا عن إشكاليات الإيمان الوراثي، وأن أبحث عن الدليل الذي أقام عليه علماء الفرق والمذاهب المختلفة حجية مصادرهم التشريعية، ومنابر دعوتهم، وقنواتهم الفضائية الدينية، التي قامت على أنقاض أمة كانت في يوم من الأيام خير أمة أخرجت للناس.

وسأعرض فيما يلي مختصرا للنتائج التي توصلت إليها خلال هذه الرحلة العلمية وذلك في مبحثين:

الأول: إشكاليات الإيمان الوراثي

الثاني: الإيمان العلمي اليقيني

إشكاليات الإيمان الوراثي

تفرغت لدراسة تراث الفرق والمذاهب الإسلامية المختلفة، ما يقرب من عشر سنوات للوقوف على حقيقة: "السنة النبوية"، و"الأحاديث النبوية"، والمرويات المنسوبة إلى النبي، وعلاقتها بالمصدر التشريعي الإلهي واجب الاتباع!!

لقد التقيت خلال هذه الفترة بعلماء من مختلف الفرق والمذاهب الإسلامية، أدرس معهم إشكاليات التراث الديني، وأحاورهم في حجية هذه المصطلحات، كلٌ حسب مذهبه العقدي وتوجهه التشريعي.

وجدت اختلافا جوهريا نشأ بين فقهاء الفرق الإسلامية، بل وبين فقهاء مذاهب الفرقة الواحدة بسبب اختلاف المحدثين، وعلماء الجرح والتعديل، في تصحيح وتضعيف المرويات التي أقام عليها كل فريق مذهبه. فقلت في نفسي:

مادام السابقون واللاحقون مختلفين في أحكام الشريعة لاختلافهم في حجية المرويات التي يستقون منها هذه الأحكام، ففريق يقول بالحل في مسألة مستندا إلى ما صح عنده من مرويات، والآخر يقول بالحرمة مستندا إلى ما صح عنده من مرويات نفس الباب وإن لم تصح عند غيره، إذن فلماذا نشغل المسلمين بآراء واجتهادات فقه السابقين المدونة في آلاف الصفحات، ومئات المجلدات، لنصل في النهاية إلى أن الحكم في مسألة بفعلها أو عدم فعلها سواء؟!!

لماذا لم تقتصر أبواب الفقه الإسلامي على ما اتفق على تحريمه فقهاء الفرق والمذاهب المختلفة في عصر معين، ويعاد النظر في هذه الأحكام حسب مقتضيات وإمكانات كل عصر؟!

فهل يعقل أن تعرض أحكام الشريعة على المسلمين بهذه الصورة المذهبية المؤسفة فمذهب يقول بالحل، ومذهب يقول بالحرمة، وذلك في المسألة الواحدة، وفي قضايا تتعلق بقرون مضت، والمفتون أتباع مذهب واحد؟! لماذا ظل الفقه الإسلامي يتحرك في حراسة أتباع أئمة المذاهب الفقهية المختلفة؟!

لماذا يصر الخلف، على الرجوع إلى فقه واجتهادات السابقين، في مسائل حياتية اختلفت طبيعتها، وأشكالها، ووسائلها، وأصولها، وقواعدها..، عما عليه الناس اليوم؟!

وإذا كانت الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله محمد، عليه السلام، هي حقا النص النبوي المبيّن للقرآن، فلماذا احتاجت هي أيضا إلى بيان وشرح علماء الحديث؟!! هل يحتاج المبيِّن إلى من يبينه؟!! وما أهمية أمهات كتب التفسير والفقه إذن وقد حملت كتب الحديث البيان النبوي للنص القرآني؟!!

وإذا كانت اجتهادات وشروح أئمة الفرق والمذاهب المختلفة، قد زادت مع بداية عصر التدوين، ثم زادت الحواشي على الشروح، ثم زادت الهوامش على الحواشي قرونا من الزمان، إلى أن أُغلق باب الاجتهاد، منذ ألف عام تقريبا فأين إذن نجد "الأحاديث النبوية"، بكلماتها وحروفها التي خرجت على لسان النبي، وسط هذا الكم الهائل من أمهات كتب التفسير والحديث والفقه؟!

لقد وجدت أن معظم اجتهادات أئمة المدارس الفقهية السلفية لا تخرج عن دائرة عصرها، الذي ولدت فيه، ولا علاقة لمعظمها، ولا تفاعل، مع عصرنا.

إن معظم المسلمين اليوم أعضاء في منظومة واحدة، هي منظومة [الآبائية] المذهبية، لذلك فهم يقفون أمام خطر واحد، خطر محو هويتهم الإسلامية، هذا الخطر الذي لا يراه إلا أصحاب البصيرة.

إن الذي يتحمل مسئولية هذا الخطر هم الذين يصرون على تفرقهم وتخاصمهم وعلى عدم تفاعلهم مع سنن التطور الحضاري، وانشغالهم بخلافاتهم المذهبية، وفتاوى التخلف، وثقافة الهزيمة.

فلماذا لا يتحرك فقهاء المسلمين اليوم، من كافة التخصصات العلمية المختلفة، مع فاعلية كتاب الله، كآية إلهية، تتجدد عطاءاتها حسب مقتضيات وإمكانات كل العصر؟!

لقد قمت بحصر ودراسة معظم الخلافات القائمة بين علماء وأتباع الفرق والمذاهب المختلفة، وكذلك فتاوى التطرف، واستباحة الدماء بغير حق، فوجدتها قائمة على "مرويات" ظنية الثبوت عن رسول الله، كان لها أثرها الكبير على الفهم المذهبي المعوج لآيات الذكر الحكيم، وعلى ثقافة التخاصم والتكفير التي تشربتها قلوب أتباع هذه الفرق وهذه المذاهب المختلفة.

لقد عشت، خلال رحلتي من الإيمان الوراثي إلى الإيمان اليقيني، سريان دم التخاصم والتكفير، واستباحة الدماء بغير حق، في شرايين أتباع الفرق والمذاهب المختلفة.

وجدت أن مسألة التخاصم والتكفير مسألة عشوائية، مذهبية، لا ضابط لها!!

أن مسألة التخاصم والتكفير بين المسلمين، تكتب فيها المجلدات، خاصة وأنها تقوم على قاعدة ما اصطلحوا على تسميته بـ "المعلوم من الدين بالضرورة"، فإذا بهذا المعلوم يخضع لوجهات نظر أئمة الفرق والمذاهب المختلفة.

والأخطر من ذلك، أن تُوظف آيات من الذكر الحكيم، لإعطاء شرعية لهذا "المعلوم من الدين بالضرورة" ليسهل على هؤلاء الأئمة، اتهام منكره بالكفر، حسب رؤية واجتهاد كل منهم!!

لقد اتهمت بعض المذاهب السلفية فضيلة الشيخ محمد الغزالي بالردة، بعد صدور كتابه "السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث"، وهو الذي أفنى حياته في الدعوة الإسلامية وتربع على منابرها.

والسبب: أنه خالف علماء السلف، في قبول بعض الأحاديث الموجودة في أصح الكتب، والتي يعتبرها هؤلاء من "المعلوم من الدين بالضرورة" الذي يكفر منكره!!

لقد دفعتني هذه الأزمة التكفيرية، أن أتقدم بطلب إلى لجنة الفتوى بالأزهر، أشرح فيه أبعاد هذه الأزمة، وعلى أي أساس قامت، ووجهة نظري العلمية في هذه المسألة وأنه يجب على الأزهر أن يضع حدا لهذه الفتاوى التكفيرية، التي يرفعها أنصار الفُرقة والمذهبية سلاحا في وجه كل مفكر مسلم، محب لله ورسوله، مخلص لدينه ولأمته يريد أن يعيد المسلمين إلى دينهم الحق، دينهم الذي ارتضاه الله لهم، لا الدين الوراثي الذي ارتضته مذاهبهم لهم.

وقد تضمن هذا الطلب السؤال التالي:

ما حكم من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم؟! هل يعد كافرا؟!

ولقد جاء رد لجنة الفتوى في [1–2–1990] حاسما وقاطعا، فقالت بعد استعراض آراء علماء السلف في هذه القضية:

"وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشيء اختلف فيه الأئمة، ولا يعد مما علم بالضرورة، فلا يعد كافراً".

وعلى الفور قمت بتسليم صورة من هذه الفتوى لفضيلة الشيخ الغزالي، الذي قام بنشرها في أول كتاب صدر له، بعد غمزه ولمزه، كتاب "تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل"، الفصل التاسع، على هامش السنة، ص175.

ثم توالى نشر هذه الفتوى في كثير من الصحف والمؤلفات، وذلك في حياة الشيخ محمد الغزالي، وبعد وفاته، بعد هذه الحملة الإعلامية التكفيرية الشرسة التي قادها أنصار ودعاة الفرقة والمذهبية، وما زالوا يقودونها رافعين سلاح الردة في وجه كل من تسول له نفسه مخالفة مذاهبهم!!

وجدت أن معظم التوجهات الفكرية الإسلامية تنطلق في دعوتها من ثقافتها المذهبية الموروثة عن الآباء، والتي قامت على أزمة التخاصم والتقاتل بين أصحابها منذ عصر "الفتنة الكبرى"، وإصدار فتاوى استحلال الدماء بغير حق!! لذلك ستظل هذه الأزمة تقوى، ويشتد عودها، ما لم تُقتلع من جذورها.

وفي عام [2005م] سُئل الدكتور موسى شاهين لاشين، رئيس مركز "السنة" بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عن رأيه في هذه الفتوى، فأجاب قائلا، حسب ما ورد على لسانه:

"السنة القولية" فيما عدا المتواتر ظنية الثبوت، منكر ظني الثبوت، كقاعدة عامة، لا يكفر لأنه ما دام ظني يبقى الاحتمال الثاني موجود فمن أنكر ظني الثبوت لا يكفر دي قاعدة أصولية". وسيأتي تفصيل عن هذا اللقاء المسجل مع فضيلته في 16مايو2005م والمنشور على موقعي "فقه القرآن"، ضمن هذه السلسلة من الدراسات.

إن مشروعي الفكري لا يقوم على أساس التشكيك في "السنة النبوية"، أو في "الأحاديث النبوية"، فهما حقيقتان ملازمتان لعصر الرسالة، لا مجال للتشكيك فيهما وإنما يقوم على أساس فاعلية القرآن بوصفه "آية قرآنية"، جاءت تدعو الناس كافة إلى إقامة إسلامهم على الدليل والحجة والبرهان.

لقد جاء القرآن الكريم يدعو الناس إلى الوقوف على حقيقة "إيمانهم الوراثي" ويحذرهم من التفرق في الدين، ومن التقول على الله ورسوله بغير علم.

فهل التزم المسلمون وتمسكوا بالعمل بآيات الكتاب الحكيم، أمة واحدة، أم اختلفوا إلى فرق ومذاهب مختلفة، كل حزب بما لديهم فرحون؟!

إنه لا سبيل أمام المسلم، الذي يريد أن يعرف طبيعة وخصائص "التراث الديني" خاصة تلك "المرويات" التي نسبها الرواة إلى "رسول الله"، عليه السلام، وعلاقة هذا التراث بالشريعة الإلهية..، إلا أن يدرس أمهات كتب هذه الفرق المختلفة، دراسة علمية جادة، للوقوف على طبيعة وحقيقة هذه العلاقة.

لذلك كان على كل طرف من أطراف النزاع أن يقدم الدليل والبرهان على صحة مذهبه، بحرية كاملة، ودون أن ينظر إلى الآخر نظرة تخاصم، أو عداء، أو تكفير.

فهل يعقل أن تستحل الدماء، استنادا إلى "مرويات" إن صحت عند فريق لم تصح عند آخر؟! وهل يعقل أن نتعبد الله تعالى بمرويات تشكك في حفظ الله لذكره الحكيم وبتأويلات مذهبية لآياته ما أنزل الله بها من سلطان؟!!

إنها مصيبة كبرى، أن يتخلى المسلمون عن مسئوليتهم في الشهادة على العالمين مخالفين بذلك سنة نبيهم، فرحين بتفرقهم وتخاصمهم، وبتعميق أزمة التخاصم والتكفير بينهم، عن طريق منابر الدعوة المحلية والفضائية!! لذلك سألت نفسي:

أية فرقة من الفرق الإسلامية، هي التي حملت كتاب الله بصفته "آية قرآنية" تقيم على أساس فاعليتها الشهادة على الناس، وليس بصفته "تراثا دينيا مذهبيا" أصبح هو المكون الرئيس للإيمان الوراثي عند معظم المسلمين؟!!

لقد غاب فقه "الآية"، فقه الواقع، وحضر فقه "السلف"، فقه التخاصم والتكفير.

لقد توقف فقه "الآية" عند عصر الرسالة، وحضر فقه "الرواية"، فتوقف بظهوره عطاء "الآية" المتجدد مع كل عصر، والذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويواجه التحديات والشبهات التي تسيء للإسلام والمسلمين بالحكمة القرآنية والموعظة الحسنة، لا بالصراخ، وحرق الممتلكات، وقتل النفس بغير حق.

إنه يستحيل أن يعرف علماء الفرق المختلفة، أعضاء منظومة "الإيمان الوراثي" طريقهم إلى تفعيل كتاب الله تعالى بصفته "آية"، وهم يصرون على تقديس "تراثهم الديني"، وفقه "الرواية"، الذي حملوا مؤهلاته العلمية، من مؤسساتهم الدينية المذهبية التي قامت على مأساة أزمة التفرق والتخاصم بين المسلمين.

إن دين الله تعالى ليس مهنة أو حرفة، لها مؤهلاتها العلمية، التي يجب أن يحصل عليها المسلم من المؤسسة الدينية التابعة للمذهب الذي ولد فيه، هذه المؤسسات التي تعمل على ترسيخ أصول التفرق والتخاصم في قلوب أتباعها، باسم العمل بالكتاب و"السنة النبوية".

لقد آمنت أن رسالة الله الخاتمة، "آية قرآنية"، عالمية، وليست تراثا بشريا قوميا يرثه علماء الفرق والمذاهب المختلفة، كل حسب مدرسته في التفسير والتأويل.

لقد أغلق الله تعالى، ببعثة رسوله الخاتم محمد، عليه السلام، جميع أبواب المرجعيات الدينية، واصطفى أمته لتحمل "آيته القرآنية" وتتحمل مسئوليتها في الشهادة على الناس على مر العصور أسوة بالرسول الذي كان شهيدا على عصره. فهل شكر المسلمون ربهم على هذه النعمة وتحملوا مسئوليتها على الوجه الذي يرضي الله تعالى؟!

ولقد بيّن الله تعالى أن الأمة التي اصطفاها لتحمل مسئولية الشهادة على العالمين سينقسم أفرادها إلى: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ [32] فاطر

"ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ": الذين هجروا الكتاب ولم يعملوا بأحكامه.

"مُقْتَصِدٌ": الذين لم يهجروا الكتاب وعملوا بأحكامه، كما تقتضيه المقابلة. فهؤلاء لم يظلموا أنفسهم، ولم يصلوا إلى درجة "السابقين بالخيرات".

"سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ": الذين سبقوا الجميع في الطاعات، وأكثروا العمل على أحسن وجه.

إن الذين أبوا أن يكونوا أهلا لهذا الاصطفاء، قد ظلموا أنفسهم بمعصيتهم وغفلتهم وبعدم تحملهم مسئولية الشهادة على العالمين، وتركها وراء ظهورهم فهؤلاء لم ينالوا فضل الله الكبير.

لقد فشل علماء التقريب بين الفرق والمذاهب المختلفة في تحقيق أهدافهم المرجوة واقتلاع جذور التطرف والتخاصم الديني بينهم، والتي وُضعت بذورها في عصر الفتن الكبرى ويجني اليوم أتباعها ثمارها.

إن ما يُبث على الفضائيات، وعلى شبكة الإنترنت العالمية، من إشكاليات التخاصم وفوضى الفتاوى الفقهية..، يزيد الأزمة عمقا وتدعيما!!

ولكن الأخطر من ذلك أن يفجر الإنسان نفسه، وسط عدوه، بفتوى تبشره بدخول الجنة على الفور!!

إذن فلماذا لا يأخذ المسلمون وعلماؤهم قراراً موحداً بالهجوم على عدوهم على قلب رجل واحد، بهذه الطريقة السهلة، التي ترفع عنهم مسئولية الشهادة على الناس ولا تحتاج إلى مناورات عسكرية، ولا إلى إعداد ما استطاعوا من قوة؟!

لماذا لا يبادر علماء المسلمين بهذا العمل، ليفوزوا جميعا بالجنة، التي هي أصلا أمل كل مسلم وتنتهي بذلك مشاكلهم العائلية وأزماتهم الاقتصادية والمالية والاجتماعية والصحية؟!

إن الأمة الإسلامية، المقطعة الأوصال، لم تحظ بأي تأييد إلهي ينصرها على عدوها المحتل لأرضها، السالب لكرامتها، الناهب لخيراتها، المحطم لعزتها، فلماذا؟!

لماذا لم يُمكِّن الله تعالى دينه الذي ارتضاه لهذه الأمة لنصبح بنعمته إخوانا، أمة واحدة نحمل أجندة فقهية واحدة، لمواجهة التحديات التي تسعى لمحو هويتنا الإسلامية؟!

أليس الله تعالى هو القائل، مخاطبا المؤمنين:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ [55] النور

لماذا لم يبدل الله خوفنا أمنا؟! هل المشكلة في وعد الله أم في الموعودين؟! هل يمكن أن يخلف الله وعده، أم أن إخلاص الموعودين ذهب ولم يعد؟!

هل المشكلة في تخلف المسلمين أم في ضعف إيمانهم؟! أين فكر الدعوة، الذي خلع ثوب الفُرقة والمذهبية، وتأسى بما كان عليه رسول الله وصحبه الكرام؟!

لقد وجدت نفسي، وأنا بعيدا عن دائرة "الإيمان الوراثي" أنظر إلى عصرين:

الأول: عصر نزول القرآن هذا العصر الذي لم أشهده، إلا أني أشهد شهادة علمية يقينية، أن كل ما نقله القرآن عنه، حق ثابت ثبوت القرآن نفسه.

والثاني: هو العصر الذي أعيش فيه، والذي أرى المسلمين قد ورثوا تراثا دينيا مذهبيا، تدعي كل فرقة منهم أن تراثها هو "السنة النبوية" الصحيحة الواجبة الاتباع والتي جاء القرآن يشهد بصحتها.

لذلك كان قلمي يتحرك بين عصرين، فتارة ينظر إلى كتاب الله فيرى الحق ناصعا يُحذر المسلمين من التفرق في الدين ومن التقول على الله بغير علم، وتارة ينظر إلى واقعهم، فلا يراهم متمسكين بما كان عليه رسول الله في عصر الرسالة!!

وكان السؤال الذي لا يفارق قلمي: لماذا لم يرث المسلمون كتابا واحدا للأحاديث النبوية، كما ورثوا كتاب الله؟! وما زلت أنتظر إجابة علمية منطقية على هذا السؤال!!

لقد كانت شهادة رسول الله، وصحبه الكرام، في عصر الرسالة، شهادة بلاغ وتفعيل لنصوص "الآية القرآنية"، لقد كانت شهادة أمة واحدة.

إن صحابة رسول الله لم يعرفوا تفرقاً مذهبياً، ولا تخلفاً حضارياً. لقد كانوا قرآنا يتحرك بين الناس، هكذا عرفتهم من خلال نصوص "الآية القرآنية" المعاصرة لي فشهدت لهم بما شهدت به.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً... [143] البقرة

فهل يعقل بعد انقطاع الوحي واكتمال الدين، أن تكون شهادة المسلمين، على مر العصور، غير شهادتهم في عصر الرسالة؟! فلنتدبر:

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [78] الحج

إذن فأين هي الأمة، التي تأست برسول الله، وبـ "سنته النبوية"، فأقامت واقعا مُشَرّفا يشهد بسموه الأخلاقي، وسلوكه الحضاري، في عصر شبكة الاتصالات العالمية والتقنيات الرقمية وثورة الإنترنت والليزر، والفيمتو ثانية والنانو تكنولوجي؟!

لقد تفرق المسلمون إلى أحزاب متصارعة، وانشغل كل حزب بتراثه الديني وجعله حاكما على فاعلية "النص القرآني"، فهجرتهم "الآية القرآنية" قبل أن يهجروها، ففقدوا خيريتهم، وشرف شهادتهم على الناس.

إن الساحة التي انتصر فيها رسول الله على قومه، ودلت على صدق بلاغه عن الله تعالى، كانت ساحة "الآية القرآنية"، الممتدة المفعول إلى يوم الدين. فكيف يترك المسلمون هذه الساحة، ويتدينون بتراث فقد فاعليته من قرون مضت؟!

لقد جاءت "الآية القرآنية" لتأخذ بأيدي الناس لرؤية حاضرهم، حيث تتواصل المعارف وتتلاحم، من أجل بناء مستقبل أفضل، فهل أقام المسلمون إسلامهم على فهم واع لمكانة هذه "الآية القرآنية"، وفاعلية نصوصها، وقيمها الحضارية، ومقاصدها العليا، وليس على استرجاع الماضي وإسقاطه على الحاضر؟!

إن إسلامنا يجب أن يقوم على هذا البرهان القائم بين الناس اليوم، بعيدا عن تراثهم الديني المذهبي، الذي ورثه الأبناء عن آبائهم، كدين إلهي، يُقاتلون في سبيل الدفاع عن نصوصه، التي إن صحت عند فريق منهم، لم تصح عند آخر.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً [174]

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً [175] النساء

إن الذي أقام توحيد الله في قلبه، مخلصاً له الدين، وآمن أن هذا القرآن هو كلام الله يقينا..، عليه أن يؤمن أيضاً بأن هذا القرآن، جاء ليقيم أمة مسلمة واحدة، لا تعرف تفرقاً، ولا تخاصماً، ولا تعددية تشريعية!!

إننا لا يمكن أن نحمل للناس الهدى والنور، والتقدم والرقي، والصلاح والفلاح، ونحن مازلنا ندافع عن الفرقة، ونقدس المذهبية، ونحمل في مكتباتنا الإسلامية وعلى شبكة الإنترنت، وعبر القنوات الفضائية، تراثا مذهبيا يحوي ثقافة التخاصم والتقاتل، والحكم بردة المخالفين في المذهب؟!

إننا يجب أن نضع نصب أعيننا الخيرية التي شرف الله بها هذه الأمة أمة التوحيد الخالص، فنعمل على وحدتها وتملك أسباب القوة والعزة والتمكين لها في الأرض.

إن الإنسان يقضي حياته كلها وسط آيات الآفاق والأنفس وكلها دلائل علمية على الوحدانية، فلماذا لا يقرأ المسلمون آيات الذكر الحكيم وتفاعلها مع آيات الآفاق والأنفس من منطلق مسئولية الشهادة على الناس فيقفوا صفا واحدا لتفعيل هذه الشهادة تنفيذا لأمر الله، واتباعا لسنة رسوله، عليه السلام؟!

إن ظاهرة التفرق، التي يشهدها العالم بين المسلمين، هؤلاء الذين تشربت قلوبهم ثقافة التخاصم والتكفير..، تنذر بخطر عظيم، يهدد مستقبلهم وشهادتهم على العالمين.

إن تفرق المسلمين إلى مذاهب عقدية، يرمي بعضها بعضا بالفسق والضلال وبمخالفة سنة رسول الله، يُفقد كثيرا من الناس الثقة في فاعلية رسالتهم في مواجهة التحديات المعاصرة.

فهل نزلت نصوص "الآية القرآنية"، ليوظفها علماء الفرق المختلفة، للإفتاء بجواز سفك المسلمين دماء بعضهم، بدعوى أن الله تعالى قد شهد لهم بالإيمان رغم تقاتلهم؟!!

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ [9] الحجرات

إن هذا الفهم المعوج هو الذي أضاع خيرية الأمة وشهادتها على الناس، فأين هي أصلا هذه الأمة، المكلفة من الله تعالى، بالتدخل للإصلاح بين الطائفتين؟!!

إن الذين يُرجعون مسائل الخلاف، المفرقة للمسلمين، وما وقع بينهم من فتن كبرى، وما زال يقع من تخاصم وسفك للدماء بغير حق..، يُرجعون ذلك إلى نظرية "المؤامرة"، هؤلاء لا يريدون اقتلاع الأزمة من جذورها!!

إنه لا أحد ينكر الصراعات القبلية والسياسية التي كانت وراء تفرق المسلمين إلى فرق ومذاهب سياسية..، كان هدفها حكم البلاد والعباد، ولكن عندما يتخذ علماء ودعاة هذه الفرق، تراثهم الديني المذهبي، قاعدة يقيمون عليها تفرقهم في الدين وتُسفك الدماء بغير حق، استنادا إلى نصوص وفتاوى من أمهات كتب هذا التراث..، فما علاقة ذلك بنظرية المؤامرة؟!

إن نظرية المؤامرة لا يمكن أن تجد لها فاعلية في صفوف المسلمين وهم "أمة واحدة"، لا يستطيع أحد اختراق صفوفها.

إن واقع تفرق المسلمين، وإرادة كل فرقة أن يسود مذهبها وينتشر بين أتباع الفرق الأخرى، حتى لا تُحكَم بشريعة غيرها وتدعيم أمهات الكتب الدينية لهذا التوجه وتقديس أتباع الفرق لأصحابها..، كل هذه الإشكالات..، هي العدو الحقيقي الذي يجب على علماء المسلمين ودعاتهم أن يحذروه ويواجهوه مواجهة علمية، من منطلق مسئوليتهم في الشهادة على العالمين.

وهل يمكن أن يتحمل علماء المسلمين هذه المسئولية، ومنابر دعوتهم بهذه الصورة المؤسفة، من "التفرق في الدين"، الذي نهاهم الله تعالى عن مجرد الاقتراب منه؟!

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [104]

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [105] آل عمران

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ [31]

مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [32] الروم

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا... [103] آل عمران

فإذا لم تكن حال المسلمين اليوم "تفرقا في الدين"، بماذا نسميها؟! والغريب أننا نراهم فرحين مستبشرين سعداء بهذا التفرق، وبهذا التخاصم ويتحدثون عن خيرية أمتهم ووقوفها أمام التحديات المعاصرة، وعن حوار الحضارات إلى آخر هذه الرايات المرفوعة، التي لا نجد لها واقعا يؤيدها!!

فإذا سألناهم: أين هي هذه الأمة التي تتحدثون عنها، والتي تحمل هذه الصفات؟! أشارت كل فرقة إلى أتباعها، وإلى كتب تراثها الديني، قائلة: نحن الأمة الإسلامية!!

إنني لم أجد في واقع المسلمين، أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، ما يدل على أنهم يبذلون جهدهم للوقوف على خطر ما هم فيه من تفرق وتخاصم!! لم أجد ما يدل على أنهم يعملون على إقامة تدينهم ومنابر دعوتهم، على فكر الأمة الواحدة، هذه الأمة التي عرفت ربها، وعرفت كيف تكون حلقة في سلسلة إيمانية، تربط حلقاتها فطرة التوحيد، التي فطر الله تعالى الناس عليها.

إن مسئولية الإنسان أمام الله تعالى مسئولية فردية، لذلك كان على من أرادوا أن يدخلوا في الإسلام، أو أن يعيدوا بناءه في قلوبهم، أن يدخلوه من باب إقامة الحجة والبرهان على صدق "الآية" التي جاء بها رسول الله محمد، عليه السلام لهداية الناس إلى صراط ربهم المستقيم.

إن الذي يريد أن يعرف الإسلام حق المعرفة، عليه أن يدخل من باب فاعلية "الآية القرآنية"، هذا الباب الذي يفتح الطريق أمام الناس لحاضر آمن، ومستقبل أفضل، ولا يسمح بدخول قلوب قد غُيِّبت آليات عملها، ولا لوسائل إدراك معطلة..، ولا لإيمان وراثي يتخذ التراث دينا مقدسا!! وهل هناك من يستطيع أن يظهر فاعلية هذه "الآية القرآنية" للناس بدون أدوات فهمها؟!

إنه لا معرفة من غير تفكر، ولا حضارة من غير تعقل، ولا إسلام من غير حجة وبرهان..، وتصرفات المسلمين وفهمهم المذهبي لنصوص الدين، حجة عليهم وليس على الإسلام.

إننا يجب أن نفرق بين من ينقُد التراث الديني كمدخل لهدم تديّن الناس وتمسكهم بدينهم، وبين من ينقُد التراث لبيان أنه ليس من الدين الإلهي أصلا!!

إن الإشكالية ظاهرة تتحدث عن نفسها، وإن البكاء على المريض لن يشفيه، لذلك كان عليّ أن أخلع ثوب المذهبية، وأشق طريقي نحو "الإيمان العلمي اليقيني"، بفهم واع، وإدراك حقيق لأسباب الأزمة، وأن أعيد الاتصال بعصر الرسالة، من خلال الاستقبال المباشر لآيات الذكر الحكيم، كقاعدة ينطلق منها مشروعي:

"نحو تأصيل الفكر الإسلامي". "موسوعة الفقه القرآني المعاصر".

وأنا حين أنطلق من عصر الرسالة، من خلال هذه "الآية القرآنية"، أنطلق من فكر الأمة الواحدة، تلك الأمة التي أقامت إسلامها على الشهادة العلمية، أنه "لا إله إلا الله" وأن "محمدا رسول الله"، وعلى السلوك الحضاري، والتنمية المستدامة، في مختلف مجالات الحياة.

أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [51] العنكبوت

الإيمان العلمي اليقيني

لقد خلق الله تعالى الإنسان بفطرة تنزع نزوعا غريزيا نحو خالقها، الله الواحد الأحد وهي فطرة التوحيد. وشاء الله تعالى أن يخلق الإنسان بقلب ونفس، وحواس تستقبل الهدى والضلال، الخير والشر..، حسب إرادة الإنسان واختياره، ومدى تأثير البيئة المحيطة به، إما أن تأخذ بيده إلى صراط ربه المستقيم، وإما أن تحول بينه وبين ذلك فينحرف ويضل الصراط، ويتردى في متاهات المعصية وضلالات الشرك.

لذلك بعث الله تعالى الأنبياء والرسل لينقذوا من ضل، ويثبتوا من اهتدى. وقد كان أول عمل قام به الأنبياء والرسل، دعوة الناس إلى التوحيد، وتذكيرهم بميثاق الفطرة.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ [172]

أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ [173] وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [174] الأعراف

ألا تعتبر هذه الآية تحذيرا عاما لأتباع الرسل، من خطر "الإيمان الوراثي"، وأن كل إنسان، سيتحمل مسئوليته الفردية كاملة أمام الله تعالى يوم القيامة؟!

وهل يمكن بعد هذا البيان الواضح، والتحذير الخطير..، أن يقبل الله تعالى إسلام المقلد لآبائه تقليدا أعمى؟!

أليس هناك احتمال أن يكونوا قد ضلوا سبيل المؤمنين وصراط ربهم المستقيم؟!

إن الانحراف عن سبيل المؤمنين الموحدين، من لدن آدم عليه السلام، يفرض على الناس جميعا مراجعة تدينهم الوراثي مراجعة علمية، منطلقها الدليل والحجة والبرهان وضبط هذا التدين بفاعلية نصوص الرسالة الخاتمة، هذه "الآية القرآنية" التي جاءت حجة الله على العالمين، إلى يوم الدين.

هذه هي الإشكالية التي كان على أصحاب منابر الدعوة الإسلامية المختلفة أن يضعوها على رأس أجندتهم اليومية:

. الانطلاق من قاعدة ميثاق الفطرة القائم على وحدة الدين.

. التوبة من معصية "التفرق في الدين"، والإنابة إلى الله تعالى.

. خلع ثوب المذهبية، بقلوب مخلصة، مبصرة لما تواجهه من تحديات.

. الاجتماع حول عطاء "الآية القرآنية"، وإقامة "موسوعة الفقه القرآني المعاصر".

إن أول العلوم التي يجب أن يتعلمها الإنسان هو علم التعرف على الله، ودلائل وحدانيته، الأمر الذي لا يتحقق إلا من خلال قلب سليم، لم تُغيب آليات عمله.

قلب لا يقبل المتناقضات، ولا الخرافات، ولا يقبل في دين الله تعالى إلا ما قام على الدليل والحجَّة والبرهان.

إن العلم اليقيني بوجود الله تعالى معرفة فطرية، تلازم الإنسان منذ ولادته وما على الإنسان إلا أن يراجع تدينه الوراثي، ليرى مدى مطابقته لهذا التفاعل الحي بين نصوص الآية القرآنية" والكون من حوله، الأمر الذي يتطلب أن يكون على قدر من الثقافة القرآنية، والعلمية، تمكنه من تحقيق ذلك.

إن الله تعالى لم يأمر الناس بعبادته، من غير أن يزودهم بأدوات وميادين التعرف على دلائل وحدانيته، وعلى هذا الأساس أقام الله تعالى حجته على الناس. فلا عذر لأحد يملك آليات التفكر والتعقل والنظر..، آليات عمل القلب ويعيش وسط هذه المنظومة المعرفية الهائلة، ثم لا ينظر في الكون حوله، ليعلم "أنه لا إله إلا الله"!!

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [19] الرعد

نعم.. "إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ"

لقد جاء القرآن يأمر الناس بتفعيل آليات التفكر، والتعقل، والنظر..، آليات عمل القلب، للوصول إلى معرفة الله تعالى وتوحيده، من خلال دلائل الوحدانية التي عمت الوجود كله.

لذلك فإنه لا قيمة لهذا الوجود البشري دون بناء الإنسان بناءً معرفيا يمكنه من قراءة الآيات الكونية قراءة تتفاعل مع فطرة التوحيد، ومع الرسالات الإلهية كقاعدة يقيم عليها المرء إيمانه، وقناعته الذاتية، بحجية الدين الإلهي واجب الاتباع.

وإذا كان الانحراف عن سنن السلوك الأخلاقي القويم له تأثيره الهدام على الأمم فإن الانحراف عن سنن التطور الحضاري والأخذ بتقنياته العلمية له أثره الكبير على انهيارها.

وإن حرية الفكر هي شعار المنهج العلمي، الذي يُساعد على تطور أية نهضة وتقدم أية حضارة. وإن ما اعتبره السابقون حقائق ثابتة، قد يأتي اللاحقون، في مناخ هذه الحرية بما يثبت عكسه، أو عدم صحته.

وإذا كان المنهج العلمي يرحب باجتهادات علماء السلف، ويعترف لهم بالفضل وما بذلوه من جهد، وما قدموه من عطاء، فإنه في الوقت نفسه منهج فعال، يثق في قدرة الخلف على العطاء المتجدد بما يفوق السلف، فلكل عصر إمكاناته، وقدراته على استنباط الأفكار، والتزود بالعلوم والمعارف .

إن منهج التفكير العلمي منهج منطقي، يصل إلى معرفة الحق، وسط هذا التراكم المعرفي، عن طريق قراءة السنن الكونية، وتفاعلها مع الرسالات الإلهية، قراءة صحيحة. قراءة تربط قلوب الناس بدلائل الوحدانية، ليصلوا إلى حقيقة التوحيد الخالص لله تعالى، عن طريق تفعيل آليات عمل القلب.

قراءة تُثبت للناس جميعا، أن رسالة الله الخاتمة، جاءت "آية قرآنية"، لتكون حجة عليهم إلى يوم الدين. قراءة تساهم في حل مشكلات الحياة المعقدة، وتقيم موازين الحق والعدل بين الناس. قراءة يواجه بها الناس تحدياتهم بفقه قرآني يتفاعل مع أحداث العصر ويعلن عن بداية عصر جديد، عصر تتفاعل فيه نصوص "الآية القرآنية" مع تطور العلوم والمعارف والثقافات..، بما يدعم مسيرة التقدم الحضاري ويواجه تحديات كل عصر.

لقد بدأ عصر العلم، الذي تتواصل فيه المعارف والثقافات، وتتطور فيه العلوم والتقنيات. انظر كيف اهتم القرآن ببيان قدر العلماء ومكانتهم.

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [18] آل عمران

لقد انتهى عصر الآية الحسية، وجاء عصر الآية العقلية، عصر "الآية القرآنية" التي جعلها الله تعالى حجة على العالمين إلى يوم الدين.

هذه "الآية" التي جاءت تبني الإنسان بناءً معرفيا صحيحاً، وتدعوه إلى تفعيل آليات عمل القلب، فلا يقبل الحق إلا بدليل، ويرفض الباطل والظن بدليل.

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى [27] وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئاً [28] النجم

وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ [19] الزخرف

إن توحيد الله تعالى لا يقوم على معارف نظرية، يتلقاها المرء من بيئته، فإذا هو لا يعلم عن حقيقتها شيئا، ولا على أي أساس قامت..، فلعلها تدعوه إلى الشرك بالله وهو لا يدري!! إنه يقوم على علم التعرف على الله، من خلال واقع مادي مشاهد، لا ينكره إنسان عاقل.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ [19] محمد

إن قيام المدارس الفلسفية بوضع تصورات نظرية عن "التوحيد"، وعن الوجود وخالقه، وتدريس ذلك في المؤسسات الدينية بمعزل عن التفاعل الحي بين "الآية القرآنية" والكون من حولنا..، حجب الناس عن جوهر التوحيد ومتطلباته ومسئولياته.

إن الذي وضع الفلسفات والتصورات الباطلة عن الوجود وخالقه، يعجز أصلا عن معرفة حقيقة نفسه، بل وعن معرفة آليات تحصيل المعارف التي استخدمها في صياغة فكره، ومحاربته لله ورسله، والتي هي بين جنبيه!!

إن شهادة التوحيد شهادة علمية، تقوم على منهج الاستدلال العقلي، الذي يتميز به أصحاب القلوب السليمة، هؤلاء الذين أخلصوا دينهم لله تعالى، وحملوا أدوات وآليات الفهم السليم لكتابه.

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [6] سبأ

إن مهمة الإنسان أن يرفع الحجب الموروثة عن قلبه وعن فطرته، بالعلم وليس بالتقليد الأعمى لآبائه فيتذكر ما نسيه من ميثاق هذه الفطرة، وينظر في آيات الآفاق والأنفس، فهي دليله في البحث عن الحقيقة، والاستجابة لدعوة الرسل.

وإذا كانت خطوات البحث العلمي التجريبي تقوم على أساس:

الإحساس بالمشكلة . تحديد المشكلة . وضع فرضيات لحلها . فحصها واختبار الفروض . اتخاذ القرار.

فلماذا لا يتبع الإنسان هذه الخطوات، ليقف على حقيقة التوحيد وجوهره؟!

لقد أقام أبو الأنبياء، إبراهيم عليه السلام، توحيده لله تعالى على هذا المنهج في الاستدلال العقلي، بعد أن ظل حائرا أمام فطرته التي كانت تذكره دائما، وتقول بوجوب وجود إله واحد لهذا الكون.

هنا كان إحساسه بالمشكلة، باعتبارها خطوة أولى من خطوات البحث العلمي. ولكنه لا يرى أباه وقومه يعترفون بهذا الإله بل يعبدون آلهة أخرى، وبذلك يكون قد حدد المشكلة تحديدا واضحا.

ثم انتقل بعد ذلك إلى وضع فرضيات لخالق هذا الكون، وقام بفحصها وتقييمها، عن طريق آليات عمل قلبه، فتوصل إلى بطلان كافة الفرضيات وأنه يستحيل أن يكون لهذا الكون إله غير الله الواحد الأحد، وكان هذا هو قراره النهائي.

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ [79] الأنعام

إن الدليل اليقيني على توحيد الله، وشهادة "ألا إله إلا الله"، مشاهد للناس في ملكوت السموات والأرض، ولكن.. فرق بين الإيمان القائم على علم ومعرفة يقينية بدلائل الوحدانية، وبين الإيمان القائم على التقليد الأعمى.

فالأول: تصديق قلبي، يقوم على دليل علمي يقيني، يقيمه الإنسان بنفسه.

والثاني: لم يقم على قناعة ذاتية من الإنسان نفسه، وإنما اتباعا لما وجد عليه آباءه، دون دليل أو برهان.

إن المقلدين بغير علم أصحاب قلوب مريضة، إنهم مجرد حملة للمعارف والأفكار.

إن المقلدين بغير علم ينقلون الأخبار إلى الناس، دون دراسة، أو تمحيص، بل أحيانا يدافعون عنها كميراث ديني لا يعلمون على أي أساس قام.

وفي إطار هذه المنظومة الوراثية ينشأ التطرف، وينمو التخاصم والعنف بين الناس!! لذلك جاء الرسل جميعا يحذرون الناس من مرض [الآبائية] المهلك. هذا المرض الذي يعمل على تغييب آليات التفكر والتعقل والنظر..، آليات عمل القلب.

إن أصحاب القلوب السليمة، يقيمون إيمانهم بالله تعالى، على علم ومعرفة يقينية بدلائل الوحدانية، التي تؤدي آليات التفكر والتعقل والنظر..، دورا رئيسا في الوقوف عليها. إن أصحاب القلوب السليمة يحملون آلية نقدية، تعمل دوما داخل النفس قبل أن تعمل خارجها. إنها تربط النتائج بالأسباب، وتقوم بتحليلها لأخذ العبر والدروس وتصحيح المسار، فلا مصادفة ولا عشوائية، وإنما تخطيط وتنفيذ ومتابعة.

إن أصحاب القلوب السليمة لا يقبلون أن يتحول الموروث الديني المذهبي إلى شريعة إلهية يكفر من ينكرها. إنهم يطلبون البرهان، قطعي الثبوت عن الله تعالى وليس فقط عن رسوله، على صحة المرويات المنسوبة إلى الله [الحديث القدسي] أو إلى رسوله [الحديث النبوي] ليقيموا إيمانهم على الحجة والبرهان.

إن هذه القلوب معدة لقبول الآخر، والتحاور معه في إطار الحرية الفكرية.

إن أصحاب القلوب السليمة ينظرون إلى الكون كمرآة تتجلى فيها للإنسان دلائل الوحدانية، ويعلمون أن المشكلة ليست في غياب هذه الدلائل، لنقوم نحن باكتشافها وإنما في افتقاد البصيرة التي تراها، وهو افتقاد كان الموروث الديني، وتغييب آليات عمل القلب سببا فيه.

إن علماء الغرب، وهم على قمة العلم وتقنياته، يغوصون ليل نهار في دلائل الوحدانية، ولكنهم لا يرونها، مع أنهم أقرب الناس إلى التعرف عليها، بعلمهم وبتقنياتهم الحديثة!! لذلك فإن القرآن لا يلبس إنسانا لباس العلم إلا إذا انطلق علمه من قاعدة إيمانية أصولها التقوى والخشية والخوف من الله تعالى.

فانظر إلى توجيه الله نظر الناس، وخاصة العلماء منهم، إلى الوقوف على دلائل وحدانيته، بإدخال آيات الآفاق والأنفس إلى مختبراتهم؟!

وتدبر كيف وردت "خشية الله تعالى" في مقام العلم؟!

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ [27]

وَمِنْ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ [28] فاطر

إن الشهادة على الناس شهادة علمية، تقوم فاعليتها على متطلبات العصر وإمكاناته. لقد اكتشف العلماء بعض القوانين التي تحكم حركة السنن الكونية وآيات الآفاق والأنفس، الدالة على الوحدانية. ولكنهم عجزوا عن الإجابة على سؤال:

كيف..؟! ولماذا..؟!

ومن هذه الآيات الدالة على الوحدانية:

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ [2]

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [3]

وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [4] الرعد

تدبر قول الله تعالى: "يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ"

وعلاقته بقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"

وبقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".

ثم اربط ذلك بقوله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا".

فهل وقفت على العلاقة بين اليقين والتفكر والتعقل كأساس تقيم عليه إيمانك العلمي وتوحيدك لله عز وجل؟!

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ [60]

أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ [61]

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ [62]

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَـهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [63]

أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [64] النمل

وقد يسأل سائل: وهل شهادة "العلم بوحدانية الله تعالى" تحتاج إلى كل هذا الكلام؟! إن معظم الناس، مع اختلاف عقائدهم، يؤمنون جميعا بوجود إله لهذا الكون..، فلماذا نناقش هذه القضية وهي من المسلمات؟!

أقول: صحيح أنها من المسلمات، ولكن عندما يكون تسليم الإنسان بها قائما على مذهب آبائه، وليس عن قناعته الذاتية القائمة على الدليل والحجة والبرهان تصبح القضية في غاية الخطورة.

إن كثيرا من المسلمين يرثون مفهوم "العلم" بمعزل عن أصول الإيمان والعمل الصالح، فلا مانع أن يكونوا من الصائمين، القانتين، المتصدقين، المستغفرين بالأسحار وفي نفس الوقت يشاركون مشاركة فاعلة في تلوث بيئتهم، بصور التلوث المختلفة!!

إن الإيمان العلمي اليقيني منظومة متكاملة، قاعدتها الدليل والحجة والبرهان ينطلق منها العلماء الربانيون، شهداء على الناس، كما أمرهم الله تعالى.

فهل يستوي الذين يعلمون، من القانتين الساجدين، والذين لا يعلمون؟!

أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [9] الزمر

إن الآية لا تخاطب علماء الدين وإنما تخاطب علماء التخصصات المختلفة.

إن الدين الإسلامي لا يفصل بين علوم الدين، وعلوم الدنيا، إلا إذا كان علماء الدين يعدّون الشهادة على الناس، التي أمرهم الله تعالى بها، شهادة قومية، تخص المسلمين فقط، وبذلك يكونون قد أوقفوا فاعلية كتاب الله باعتباره "آية قرآنية" للناس كافة!! أليس هذا هو واقع العالم الإسلامي، منذ أحداث الفتن الكبرى وإلى يومنا هذا مخالفين بذلك "السنة النبوية" الكبرى، سنة "الأمة الوسط"، المكلفة بالشهادة على الناس كافة؟!

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً..." [143] البقرة

فهل يعقل أن يأمر الله تعالى أتباع رسوله الخاتم، عليه السلام، أن يكونوا أمة واحدة يجب عليها أن تتحمل مسئولية الشهادة على الناس..، ثم يقبل منهم تفرقهم في أصول الدين وتخاصمهم في أصول الشريعة، واعتزاز كل فريق منهم بإيمانه الوراثي المذهبي بعيدا عن الإيمان العلمي اليقيني؟!

إن توحيد الله عز وجل إذا قام على أساس الإيمان الوراثي، فإن هذا يعني أن المرء سيقيم أيضا أحكام شريعته على أساس الموروث الفقهي لأئمة الفرقة التي تربى في أحضانها!! فكيف يعلم المرء أن ما وجد عليه آباءه هو دين الله الذي أمر باتباعه؟!

ولقد حذر الله تعالى من خطر اتباع الآباء بغير علم ولا هدى من الله تعالى.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [170] البقرة

فلا مفر من العودة إلى ما كان عليه رسول الله وصحبه الكرام. العودة إلى العصر الذي جاء يدعو الناس إلى إقامة دينهم على أساس الحجة والبرهان.

العودة إلى "إسلام الرسول"، قبل ظهور الفرق والمذاهب المختلفة.

لقد عاش رسول الله، وصحبه الكرام، رضي الله عنهم أجمعين، "الآية القرآنية" سلوكا وخلقا عمليا، وامتزجت قلوبهم بأفكارها، وتوجيهاتها، وأحكامها..، وتحركوا بها وفق ثقافة ومعارف وأدوات عصرهم.

وإذا كانت نصوص "الآية القرآنية"، التي خوطب بها الناس في عصر الرسالة هي نفسها النصوص التي يُخاطب بها الناس جميعا، بإمكاناتهم وعقولهم المتطورة، إذن فإننا في أشد الحاجة أن نرى عطاءاتها ممتدة إلى عصرنا، وإلى العصور المقبلة حسب إمكانات كل عصر وتحدياته.

إننا في أشد الحاجة أن نرى نماذج الصلاح، المعاصرة لنا، تُظهر عطاءات "الآية القرآنية" سلوكا حضاريا، وتنمية مستدامة تضمن للناس حياة كريمة في كافة المجالات وتدعوهم إلى المحافظة على بيئتهم، بعيدا عن الإفساد في الأرض، بصوره المختلفة.

وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ [56] الأعراف

إن المسلمين لا يكونون أبدا سببا في تلوث بيئي، أو فكري، أو بصري، إنهم لا يلوثون البيئة بأية صورة من صور التلوث.

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [28] ص

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [77] القصص

وإذا كان الناس لا يرون اليوم فاعلية "الآية القرآنية"، وكيف أنها جاءت لتخرجهم من الظلمات إلى النور..، فذلك لأسباب، منها:

. إنها آية عقلية، وليست حسية تراها الأعين.

. إنها تقوم على تفعيل آليات التفكر والتعقل، والنظر..، للوقوف على عطائها المتناغم مع دلائل الوحدانية المنتشرة في الآفاق والأنفس.

. إن أهلها قد أسندوا مسئولية تفعيل نصوصها إلى علماء السلف، كل حسب مذهبه الذي ولد فيه، وتربى على مائدته، فتوقف عطاؤها المتجدد على مر العصور.

فهل نزلت "الآية القرآنية" لتكون حكراً على أتباع مذهب دون آخر؟!!

لقد جاءت "الآية القرآنية" توقظ وعي الإنسان، وتحرره من سلطان [الآبائية] وتبين للناس أن الدين الإلهي قائم على العلم، وعلى الحجة والبرهان، وأنه ليس هناك مقدس غير كلام الله، وأن كل نص قامت حجيته على اجتهادات البشر ومدارسهم في تعديل وتجريح "رواته"..، ومذاهبهم في تصحيح وتضعيف "متنه"..، يستحيل أن يكون من المقدس الإلهي واجب الاتباع.

إنك بتدبر "الآية القرآنية" تعلم حقيقة معنى قول الله تعالى: "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر".

إن الإشكالية الحقيقة التي واجهت، وتواجه، أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، تكمن في قوله تعالى: "فهل من مدكر"، أي تكمن في عدم تفعيل كثير من المسلمين لآليات التدبر والتعقل والتفكر والنظر..، فيما ورثوه من ثقافة دينية.

فلماذا لا ترتبط قلوب المسلمين بهذه "الآية القرآنية" سلوكا عمليا حضاريا يهديهم إلى صراط ربهم المستقيم؟!

منهج الدراسة

إن من رحمة الله تعالى بالناس، أن أرسل الرسل، يحملون إليهم ما يُعينهم على تغيير ما بأنفسهم، وأن جعل رسالته الخاتمة آيةً عقلية، تُعين كل صاحب قلب سليم أن يشهد بتفاعل نصوصها مع آيات الآفاق والأنفس، فيقيم شهادة "ألا إله إلا الله" وأن محمداً رسول الله"، على أساس علمي يقيني، تمتد فاعليته إلى يوم الدين.

إن الإنسان يقضي حياته كلها وسط آيات الآفاق والأنفس، وكلها دلائل علمية على الوحدانية..، فلماذا لم يقرأ المسلمون آيات الذكر الحكيم، وتفاعلها مع آيات الآفاق والأنفس، من منطلق مسئوليتهم في الشهادة على الناس، فيقفوا صفا واحدا لتفعيل هذه الشهادة، تنفيذا لأمر الله، واتباعا لسنة رسوله، عليه السلام؟!

لقد حذر الله المسلمين من التفرق في الدين، ومن اتخاذ أسماء وهُويات ومذاهب دينية لم يشهدها عصر الرسالة، ولا كانت من سنة رسول الله التي أمره ربه باتباعها. فلماذا لم تكن أولويات اهتماماتهم البحث عن مخرج للتوبة من معصية "التفرق والتخاصم المذهبي" التي يورثونها لأبنائهم، ويفرضونها عليهم فرضا يوم ولادتهم؟!

إن هذه السلسلة من الدراسات، محاولة للفت نظر المسلمين كافة، إلى أن القرآن الكريم، ليس تراثا دينيا، حتى يكون أحد مصادر الدين التشريعية، وإنما هو "آية إلهية" لا شريك لها في مصدرها، ولا في حجيتها، ولا في شريعتها.

فأنا لا أخاطب أتباع فرقة أو مذهب معين، وإنما أخاطب المسلمين كافة، الذين يشهدون أنه "لا إله إلا الله"، وأن "محمداً رسول الله"، ويؤمنون بأن هذا القرآن هو كلام الله، وآيته الدالة على صدق رسوله، ويملكون قدرا من العلم والثقافة يمكنهم من الوقوف بأنفسهم على إشكاليات تراثهم الديني المذهبي.

لذلك فإنني عندما أتعامل مع تراث الفرق المختلفة أتعامل معه باعتباره مصدرا معرفيا بشريا، حمل للمسلمين إشكاليات يصعب حصرها في كتاب وكانت هي العقبة الكؤود التي وقفت أمام تفعيل "الآية القرآنية" واستلهام عطائها المتجدد مع كل عصر.

فهل يعلم المسلمون حجم هذه الإشكالات، ومدى خطورتها في تدعيم أزمة تفرقهم في الدين، ودورها في تأصيل جذور الصراع الفكري التخاصمي القائم بينهم اليوم؟!

لقد ملئت المكتبات بمئات الكتب التي أظهرت بوضوح حجم هذه الأزمة فهل قرأ المسلمون، أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، ماذا يقول علماء كل فرقة في هذه الكتب عن عقيدة أتباع الفرق الأخرى؟!

وهل حاول المسلمون الوقوف على حقيقة هذه الأزمة عن طريق شبكة المعلومات العالمية [الإنترنت] الموجودة اليوم في كل مكان؟!

فلماذا لا يقف أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، بأنفسهم، على حجم مأساة تراثهم الديني، وما حمله لهم من تفرق وتخاصم؟!

السبب: أنهم اعتادوا أن يلقوا بمسئوليتهم الدينية على أكتاف علمائهم، الذين اعتادوا تحذيرهم من الاقتراب من دائرة البحث العلمي، بدعوى أنهم ليسوا أهلا له، أو أن يلتحقوا بمؤسساتهم الدينية للحصول على مؤهل في علم من علوم المذهب، ليظلوا أسرى مذهبهم!!

لقد جاء الوقت لأن يتحمل المسلمون مسئوليتهم الدينية، وأن يقفوا بأنفسهم على إشكاليات مذاهبهم الدينية، وأن يقتحموا مجال البحث العلمي، وشبكة المعلومات العالمية [الإنترنت] التي أعتبرها حجة على كل من أراد أن يبحث عن حقيقة تدينه الوراثي ومدى موافقته للدين الإلهي واجب الاتباع.

لقد وفرت شبكة المعلومات العالمية على الباحثين جهدا ووقتا كبيرين، كانوا يبذلونهما للاطلاع على مراجع أبحاثهم في المكتبات المحلية والدولية.

ومع أن هناك من يقول بأن مرجعية "الإنترنت" لا تصلح في مجال البحث العلمي الذي يقوم على توثيق المعلومات من مصادرها الأصيلة..، إلا أني أقول:

إن معظم أمهات الكتب الدينية، للفرق والمذاهب المختلفة موجودة اليوم على "الإنترنت"، بصيغة [بي دي إف] أي طبق الأصل، هذا بالإضافة إلى قاعدة البيانات الهائلة، التي تساعد الباحث في جمع مادته العلمية، والتعرف على طبيعة وحجم المشكلة محل البحث.

ومن هذا المنطلق، ولأهمية أن يقف المسلمون الباحثون عن الحقيقة بأنفسهم على حجم مأساة تراثهم الديني المذهبي..، اتخذت هذه الشبكة المعلوماتية مرجعاً أساساً لما سيرد في هذه الدراسات من إشكالات هذا التراث الديني.

إنه من الضروري أن يقف القارئ الكريم بنفسه على حجم هذه المأساة، في أي وقت شاء، وفي أي موقع كان.

إنها خطوة أولى، تتبعها بعد ذلك مرحلة توثيق هذه الإشكاليات، واختبار مدى صحتها، من مصادرها الأصيلة.

ولقد جاءت هذه الدراسات، في إطار مشروعي الفكري، محاولة مني لإيجاد حل لهذه الأزمة، عن طريق محورين رئيسين:

الأول: "نحو تأصيل الفكر الإسلامي".

ويعالج إشكاليات الإيمان الوراثي، في إطار منظومة [الآبائية] القائمة على تقليد الأبناء للآباء بغير علم، في إطار "جدل الآية والرواية"، والصراع بين المقدس الإلهي والمقدس البشري، على مر العصور.

الثاني: "موسوعة الفقه القرآني المعاصر".

وهي دعوة لكل من له إسهام في تدبر كتاب الله، على مستوى التخصصات العلمية المختلفة، إلى المشاركة في وضع قاعدة بيانات يسهل عن طريقها الوصول إلى عطاء الكلمة القرآنية والآية والسورة، وكذلك الدراسات والبحوث القرآنية المعاصرة بأسلوب يُظهر فاعلية "آية قرآنية" تشهد بصدق الله فيما أنزل، وصدق رسوله فيما بلغ.

ومما يجعل لـ "موسوعة الفقه القرآني المعاصر" فاعلية على مر العصور أنها تحمل آليات تسمح بإدخال وإخراج وتعديل البيانات، حسب إمكانات كل عصر.

إن مشروعي الفكري لا يقوم على استرجاع الماضي وإسقاطه على الحاضر، وإنما على فاعلية "الآية القرآنية" المعاصرة لنا اليوم، حيث تتواصل المعارف وتتلاحم، من أجل بناء مستقبل أفضل، يساعد الإنسان على تحمل مسئولية خلافته في الأرض بحكمة وسلام.

وأقصد بـ "الآية القرآنية"، كتاب الله تعالى، الذي أنزله الله على رسوله الخاتم محمد عليه السلام، وأمره أن يدونه في كتاب، وتعهد سبحانه بحفظ آياته إلى يوم الدين، والذي يجب أن يتعامل معه الناس كافة، كآية إلهية معاصرة لهم، تثبت صدق الله فيما أنزل وصدق رسوله فيما بلغ، وأن يقيموا الدليل والبرهان العلمي على ذلك.

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً [105] وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً [106] الإسراء

لقد نزلت "الآية القرآنية" بالحق على قلب رسول الله، عليه السلام، فأقامه بين الناس وقام به معه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

لقد جاءت "الآية القرآنية" لتقيم أمة، لا خير فيها، إلا إذا حملت مسئولية الشهادة على الناس، لتخرجهم من الظلمات إلى النور.

جاءت "الآية القرآنية" لتربي جيلا يحمل فقها قرآنيا معاصرا، يأخذ بأيدي الناس إلى صراط ربهم المستقيم، سلوكا عمليا، وليس ترفا فكريا مذهبيا، وفقها نظريا حرمهم عطاء "الآية القرآنية"، المتجدد مع كل عصر.

ويقوم مشروعي الفكري على المحاور التالية:

أولا: التوحيد وحجية "الآية القرآنية"

ثانياً: اللامذهبية

ثالثا: أدوات فهم القرآن

أولا: التوحيد وحجية "الآية القرآنية"

إنه على الرغم من أن الإيمان بوحدانية الله تعالى، وأنه سبحانه منزل هذا القرآن من المسلمات البدهية التي ورثها المسلمون، فإن كثيراً منهم لا يعلمون أن أول الطريق إلى هذا التوحيد، هو إقامة الدليل والبرهان العلمي، وليس الوراثي، على سلامته من الشرك وعلى أن "الآية القرآنية" هي الرسالة الإلهية الخاتمة، والدليل القطعي على نبوة رسول الله محمد عليه السلام، وصدق بلاغه عن الله تعالى.

لقد ضرب الله المثل بأبي الأنبياء إبراهيم، عليه السلام، لبيان وجوب أن يقيم الإنسان توحيده لله تعالى على أساس علمي، فيعلم أن وراء هذا الكون إلها حكيما له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، فيخر له ساجدا.

فلقد ضرب إبراهيم، عليه السلام، المثل الأعلى في انتزاع النفس من منظومة [الآبائية] وتوجيهها الوجهة الصحيحة التي تساعدها على إخلاص العبودية لله تعالى وإقامة الدين سلوكا إيمانيا عمليا في حياتها.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [120] شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [121] وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ [122] النحل

لقد أقام إبراهيم على قومه، الحجة العقلية، والبرهان المنطقي، على ضلالهم فلم يجدوا أمامهم إلا أن يرفعوا في وجهه سلاح "الإيمان الوراثي":

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ [69] إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ [70] قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ [71] قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ [72] أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ [73] قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [74] الشعراء

انظر وتدبر قولهم: "بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ".

لقد استخدموا لفظ [بل] لقطع الطريق أمام إبراهيم لمزيد من الأسئلة واختاروا التعبير بـ [وجدنا] لبيان تأصل ملة الشرك في قلوبهم، وتعلقهم بها خاصة وأنها ملة الآباء، وقد ظنوا أن محبة الآباء تقتضي اتباعهم، وتقليدهم تقليدا أعمى!!

لقد كانت هذه الأسئلة، التي وجهها إبراهيم عليه السلام إلى قومه، دليلا على بلوغه الرشد، وأن على الإنسان أن يراجع "إيمانه الوراثي" عند وصوله إلى هذه المرحلة من عمره، حيث عندها يكون مسئولا مسؤلية كاملة عن كل تصرفاته الدينية والمدنية.

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ [51] إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ [52] قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ [53] قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [54] الأنبياء

فبعد رحلة من الإيمان الوراثي إلى الإيمان العلمي اليقيني، وبعد النظر في دلائل الوحدانية، وتفعيل آليات عمل القلب في الموروث الديني، أرسى أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، قواعد الحنيفية، وحجية الدين الإلهي واجب الاتباع، فاستحق أن يأمر الله المؤمنين أتباع رسوله الخاتم محمد، عليه السلام، أن يتأسوا به، وبالذين آمنوا معه.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [6] الممتحنة

ولكون إقامة البرهان العلمي، على التوحيد، وعلى حجية الكتاب الإلهي، هو الأساس الذي لا يصح إسلام المرء إلا إذا قام عليه، ربط الله تعالى التأسي برسوله الخاتم بسلسلة إيمانية متصلة الحلقات بإبراهيم، عليهما السلام، فتدبر:

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً [21] الأحزاب

إن قضية التوحيد، وحجية "الآية القرآنية"، والتي تتوقف عليها سعادة الإنسان في الدارين، لا تثبت إلا بالدليل والحجة والبرهان. ألم يبدأ أبو الأنبياء، إبراهيم عليه السلام حواره مع أبيه على أساس علمي؟!

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنْ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي... [43] مريم

لقد جاء عصر الرسالة الخاتمة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، من باب التوحيد القائم على فاعلية كتاب الله كـ "آية"، حملت براهين صدقها في ذاتها.

هذه البراهين القائمة على التفاعل بين نصوصها، ودلائل الوحدانية. هذا التفاعل الذي يجب أن يقيم المرء عليه شهادة "أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله" وأن هذا القرآن هو كلام الله يقينا.

لقد جاء هذا القرآن يحمل حجيته في ذاته، جاء يرشد الناس إلى طرق الاستدلال والاستنباط ليقفوا على دلائل الوحدانية، وتفاعلها مع آيات الذكر الحكيم، فيخروا لله سجدا. لذلك لا يمكن أن تنفصل حجية "الآية القرآنية" عن حجية "الآيات الكونية". وإن الذين لم ترتبط قلوبهم بكتاب الله، كـ "آية" من آيات هذا الوجود، حرموا أنفسهم من نور هدايتها إلى صراط الله المستقيم.

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [52] الشورى

إن هداية نور "الآية القرآنية" لا تتحقق بمجرد قراءة آيات الكتاب على الناس ولكن بتدبر نصوصها، للوقوف على عطائها الذي سيواجهون به تحدياتهم، وسيخرجون به أنفسهم من الظلمات إلى النور، فتدبر.

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [22] الزمر

ولا شك أن كل إنسان أقام توحيده لله عز وجل على أساس صدق "الآية القرآنية" وصدق من أنزلها، وصدق من بلغها..، قد أجاب على سؤال كان يشغل باله: هل يمكن أن يكون الكون بهذا الإبداع، وبهذا التقدير المحكم، من تلقاء نفسه؟ وهل يمكن أن تكون "الآية القرآنية" من إبداع غير خالق هذا الكون؟

إن كل ما في الأرض مخلوق لمنفعة الإنسان، هذا الإنسان الذي يمثل ذرة في هذا الكون الهائل، الدال بذاته على خالقه القادر، ومبدعه الحكيم. فهل شكر الإنسان ربه على نعمة هدايته إلى دلائل الوحدانية، وتفاعلها مع آيات ذكره الحكيم، وعطائها المتجدد إلى يوم الدين؟! إن الشكر ليس مجرد كلمة تقال، وإنما هو سلوك حضاري يشهد بأن المسلمين حقا أهلٌ لحمل هذه "الآية القرآنية" الهادية إلى صراط الله المستقيم.

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [34] إبراهيم

لقد نسب المشركون لله الولد، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [68] قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ [69] يونس

كما جعل المشركون لله تعالى البنات، بغير علم، فنزل القرآن يخاطبهم بالمنطق:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمْ الْبَنُونَ [149] أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ [150] أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ [151] وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [152]

أَاصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ [153] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [154] أَفَلا تَذَكَّرُونَ [155] أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ [156]

فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [157] الصافات

تدبر العلاقة بين قوله تعالى:

"إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ"

وقوله تعالى: "أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ"

ثم قوله بعدها: "فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ"

لتقف على أن السبب الرئيس وراء تكذيبهم لدعوة الرسل وافترائهم الكذب على الله تعالى، والتقول على الله بغير علم، هو أنهم لا يُعملون آليات عمل القلب، في إقامة الدليل العلمي المثبت لصحة وحجية ما يؤمنون به. فتدبر:

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [111] البقرة

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ [148] الأنعام

وليس صحيحا أن [العلم] يأتي في القرآن بمعنى [الظن]، لأننا نؤمن بأنه لا ترادف في كتاب الله تعالى. فإذا جاء [الظن] في سياق الحديث عن [الاتباع] فلا يعني إلا الأوهام والخيالات، والأساطير، والمرويات الباطلة، التي يتخذها الناس دينا مقدسا يعبدون أصحابه!!

إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى [23] النجم

فكيف ينهى الله تعالى الإنسان أن يقيم توحيده، وحجية نصوص "آيته القرآنية" على الظن، ثم يأتي من يقول إن العلم يمكن أن يأتي في سياق الاتباع بمعنى الظن، أو أغلب الظن، ليعطي بذلك شرعية لمرويات مذهبه الظنية؟!!

لقد انحرف أهل الكتاب عن صراط ربهم المستقيم، باتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، هؤلاء الذين افتروا على الله الكذب، وحرموا لهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، حسب أهوائهم.

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [31]

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [32]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [33] التوبة

فهل يعقل أن يكون "الهدى ودين الحق" تراثا دينيا مذهبيا، إن صحت نصوصه عند فريق، لم تصح عند آخر؟!

لذلك فإن من رحمة الله تعالى أن تعهد بحفظ نصوص "دين الحق" بنفسه، وبيّن أن لا أحد أظلم ممن نسب إلى الله تعالى تشريعات ما أنزل بها من سلطان.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [7]

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [8]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [9] الصف

تدبر: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ".

ألا تعتبر هذه الآية تحذيرا عاما لكل الناس، بمن فيهم أتباع رسول الله الخاتم محمد عليه السلام، بمراجعة تدينهم الوراثي، والتأكد من مطابقته لجوهر التوحيد وأصوله ولنصوص "الآية القرآنية" وحجيتها، وأنه لا تشوبه شائبة من شرك، أو من تشريعات لم يأذن بها الله تعالى؟!!

وتدبر قول الله تعالى:

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [32] هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [33] التوبة

إن الذي يريد أن يدخل في الإسلام، ماذا عليه أن يفعل؟!

. هل يختار أكثر الفرق الإسلامية عددا، أو قوة، فيعتنق مذهبها؟!

. أم يدرس مذاهب الفرق المختلفة، ثم يختار منها ما يراه حقا؟!

. هل عليه أن يرجع إلى الماضي، وإلى اجتهادات ومرويات وفقه السلف؟!

. أم عليه أن يبدأ الطريق من أوله، بعيدا عن كل هذه السبل المتفرقة وعن هذه المرجعيات المذهبية المختلفة؟!

إن نصوص "الآية القرآنية" حق مطلق، لا ظن فيها ولا هوى متبع، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، لأنها تنزيل من حكيم عليم.

وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ [6] النمل

المص [1] كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [2] اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ [3] الأعراف

لقد قصر الله تعالى الاتباع على هذا الحق المطلق، على هذا الكتاب المنزل، وذلك على وجه التحديد: "اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ".

والذي أُنزل من ربهم هو الكتاب المشار إليه: "كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ".

وجعل الله تعالى هذا الكتاب موضوع المذاكرة، والتذكر، والذكرى: "وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" "قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ".

فهل يعقل بعد هذا البيان، أن يقبل الله تعالى من الناس إيمانهم الوراثي، الذي أقاموه في قلوبهم، من غير دليل، ومن غير حجة وبرهان، خاصة وقد حذرهم من ذلك بقوله تعالى: "وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ"؟!

ثانياً: اللامذهبية

لقد وضعت "المذهبية" قيودا وأغلالا على قلوب أتباعها، حالت دون تفعيل نصوص "الآية القرآنية" في حياتهم، وجعلت المرويات المنسوبة إلى رسول الله سببا في تفرق الأمة إلى أحزاب مختلفة، كلٌ حزب بما صح عندهم منها فرحون!!

لقد نجح إبليس في مواصلة مخططه في إغواء أتباع الرسل، فجعل أتباع رسول الله محمد، عليه السلام، يقعون في فتن كبرى، فرقتهم في الدين، وقد حذرهم الله تعالى من الوقوع في هذه الفتن، خاصة ما ذكره عن أتباع رسوله عيسى، عليه السلام وكيف أنهم قد ضلوا سبيله بعد وفاته.

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ [116]

مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [117] المائدة

تدبر قول عيسى، عليه السلام، والذي يحدد مهمته ومسئوليته كرسول:

"وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ"

لقد توفي الأنبياء والرسل وهناك من ضل سبيل المؤمنين بعد وفاتهم، فما الدليل على استثناء أتباع الرسول الخاتم، من أن يكون فريق منهم قد ضل سبيل المؤمنين كما ضل أتباع الرسل السابقين؟!

هل تعهد الله تعالى بعصمة أتباع رسوله الخاتم من الضلال؟! هل تعهد الله تعالى بحفظ نصوص تراثهم الديني كما تعهد بحفظ آيات الذكر الحكيم؟!

هل يمكن أن يُنزل الله على رسوله محمد، عليه السلام، شريعة مبينة ومكملة لأحكام كتابه، ثم يترك حفظ نصوصها لعلماء الفرق المختلفة، كلٌ حسب مذهبه؟! ألم يخبرنا الله تعالى، محذرا، أن ضلال أتباع الرسل وتفرقهم إلى شيع وأحزاب، أمر وارد ومحقق؟!

شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ [13]

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ [14]

فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ [15] الشورى

إن "السنة النبوية" الكبرى، التي تمسك بها جميع الرسل، أن أقاموا الدين هم ومن آمن معهم، ولم يتفرقوا فيه، وهذا يعني أن "المذهبية" ليست من "السنة النبوية"، وأنها من صنع الأتباع الذين ضلوا سبيل المؤمنين، بتدعيم وتأييد من الشيطان الرجيم الذي لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [21] النور

لقد تفرق المسلمون إلى فرق ومذاهب مختلفة، وأصبح لكل فرقة تراثها الديني القائم على مرويات منسوبة إلى رسول الله، إن صحت عند فرقة لم تصح عند أخرى. فإذا كان الله تعالى قد حذر المسلمين من التفرق في الدين وبين أن هذا التفرق هو حال المشركين، فهل يعقل ألا يقف علماؤهم وقفة واحدة مع أنفسهم فينظروا إلى أين هم سائرون؟! فهل فرق صحابة رسول الله دينهم، فكانوا أهل سنة: يأخذون نصوص "السنة النبوية" عن عموم الصحابة، وشيعة: يأخذون نصوص "السنة النبوية" عن أئمة أهل البيت، وكتاب الله قائم بينهم يحذرهم أن يفعلوا ذلك، ويبين لهم أن "السنة النبوية" الحقة يستحيل أن تأمر بذلك؟!

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [30] مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ [31] مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [32] الروم

إنني عندما أخص بالذكر فرقتي "أهل السنة"، و"الشيعة"، عند حديثي عن الفرق والمذاهب الإسلامية، فذلك لكونهما أكبر الفرق الإسلامية انتشارا اليوم. وعندما أعطى مساحة أكبر لإشكاليات فرقة "أهل السنة" فإن ذلك لكونها أول الفرق التي قادت حركة الفكر الإسلامي بعد أحداث الفتن الكبرى، ونجحت في عزل واضطهاد كافة التوجهات الفكرية الأخرى، مع بداية عصر الدولة الأموية بقيادة معاوية بن أبي سفيان.

إن أول ما سيحاسب عليه الإنسان في الآخرة هو إخلاص العبودية لله تعالى. فإذا كان الله تعالى قد بيّن أن من أعمال المشركين أنهم فرقوا دينهم وكانوا شيعا، كل حزب بما لديهم فرحون، ألا يعد هذا تحذيرا يدفع كل مسلم أن يخلع ثوب التفرق في الدين والعودة إلى ما كان عليه رسول الله وصحبه الكرام؟!!

إن فتنة "التفرق في الدين" تكمن في أن كل فرقة تعتبر نفسها هي الأمة الإسلامية فإذا نظرنا بعين البصيرة إلى حقيقة هذه الأمة لم نجد شيئا!!

إن الأمة الإسلامية هي التي تخلق أفرادها بخلق رسول الله، وتمسكوا بسنته النبوية فلم يتفرقوا في الدين، وأقاموا حركة حياتهم، وتطورها، على فهم واع وحكمة بالغة، وفقه معاصر، لنصوص "الآية القرآنية، التي لو بَعَثَ الله رسوله اليوم، لتحدث إلى الناس بها وبلغة وتقنيات العصر، ولأمر المسلمين بذلك.

إن الأمة الإسلامية، أمة الشهادة على الناس، أمة مواجهة التحديات المعاصرة بفكر "التنمية المستدامة"، فكر التغيير القائم على إصلاح الحاضر لبناء مستقبل أفضل، على قاعدة "لا ضرر ولا ضرار". لذلك فإن أية جماعة ترفع اليوم راية الإسلام، وتقيم أصول مذهبها على مرويات منسوبة إلى الله تعالى، أو إلى رسوله..، دون أن تقيم الدليل قطعي الثبوت عن الله تعالى [وليس فقط عن رسوله] على صحة هذه الأصول فقد تخلت عن مسئولية الشهادة على الناس، وساعدت في تدعيم جذور التخلف ومأساة التفرق في الدين.

وعلى الرغم من وضوح مأساة التفرق في الدين، وضوح الشمس في كبد السماء فإننا نرى معظم علماء هذه الجماعات ودعاتها، فرحين بهذا التفرق سعداء بمنابر دعوتهم التخاصمية المذهبية، بصورها المختلفة!!

فهل ينتظر المسلمون أن تتحول "الآية القرآنية" إلى عصا موسى عليه السلام، لتعمل في حياتهم دون تفعيل منهم لآياتها، فإذا هم مجتمعون على قلب رجل واحد؟!

ولكن الأخطر من ذلك هو إصرار علماء وأتباع كل فرقة على أنهم هم الأمة الإسلامية..، وينسون أو يتناسون، أنهم جميعا أعضاء في منظمة واحدة، هي منظمة [الآبائية] التي ولدوا فيها وتعلموا في مؤسساتها الدينية.

هذه المؤسسات التي ساعدت بشكل كبير في تدعيم أزمة التخاصم بينهم، ورفع سلاح الردة والتكفير في وجه المخالف لهم في المذهب!!

والسؤال: أين هي هذه الأمة التي يتحدثون عنها؟!

فهل كان يُتصور أن يأتي يوم تهدم فيه عائلات في العراق بأكملها، امتزج دماء أولادها بمذهبي السنة والشيعة، واستمر سكنهم الزوجي يعيش في سلام وأمان سنوات وسنوات، إلى أن جاء يوم الفتنة الطائفية الكبرى؟!

إن وقود هذه "الفتنة" كان ينتظر من يشعله من قرون مضت، سواء تم ذلك بأيدي أصحابها، أو بأيدي قوات التحالف، المهم أن "الفتنة" وجدت من يوقدها!!

ثم انظروا وتابعوا، وتدبروا، ما يحدث من مناظرات بين علماء الفرق المختلفة تعرض على القنوات المحلية والفضائية، فهل يمكن أن يقبل عاقل أن نراهم سعداء يتحدثون عن خيرية أمة لا وجود لها أصلا؟!

أنا أعلم أن هناك كثيراً من أنصار المذهبية لا يرون وجود فتنة أصلا، وأن وجود بعض التصرفات الفردية الخاطئة، هنا أو هناك، لا يعني وجود ظاهرة أو أزمة تستحق كل هذه الدراسات، وكل هذا الاهتمام!!

ويقولون: ها هم المسلمون يعيشون في سلام مع غيرهم، ولا نرى لهذا التخاصم ولا لهذا التقاتل وجودا!!

ويبدو أن هؤلاء يرون الواقع بأبصارهم لا ببصيرتهم!!

إنني لا أتحدث عن أزمة يراها كل من له عين يبصر بها، وإنما أتحدث عن جذور أزمة تأصلت في قلوب أتباع الفرق والمذاهب المختلفة جيلا بعد جيل، إلى يومنا هذا ولا يراها إلا من نظر إلى حال المسلمين بعين البصيرة، ليقف على جذور هذه الأزمة التي تظل بركانا خامدا إلى أن يأتي الوقت الذي تثور فيه!!

وهناك من يقولون: إن اختلاف المسلمين رحمة، وإن هذا الصراع المذهبي هو مشيئة الله تعالى، والله لا يُسأل عما يفعل..، إلى آخر هذه الإشكالات التي سودت بها صفحات الكتب. ولكن المصيبة في استدلالهم، على مذهبهم هذا، بقول الله تعالى في سورة هود:

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ [118] إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [119]

أقول: إن الله تعالى لم يخلق أصلا الناس مختلفين في الدين، فقد خلقهم أحرارا ليختاروا دينهم بإرادتهم، "وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"، وفق قانون الاختيار. فمن اختار الحق فقد نالته رحمة الله، "إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ"، والأصل أن يختاروا الرحمة، "وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ".

إن مشيئة الله مطلقة، فلو شاء الله لهدى الناس جميعا، ولكنه سبحانه شاء أن يختار الإنسان دينه بإرداته، فلزم ذلك أن يكون هناك طريق للهدى، وطريق للضلال، طريق للإسلام، وطريق للكفر، وعلى الإنسان أن يختار.

فمن اختار طريق الهدى، لم يخرج عن مشيئة الله تعالى، والله لم يجبره على اختيار هذا الطريق. ومن اختار طريق الضلال فلم يخرج عن مشيئة الله، ولم يجبره الله تعالى على اختيار هذا الطريق.

لذلك كان الدافع وراء هذه الدراسة أن أبين للمسلمين أن ما هم عليه من تفرق وتخاصم، هو من صنع أيديهم هم، بعد أن اختاروا لأنفسهم طريقا لا يريده الله لهم وإن كان موجودا بمشيئته، حسب النظام الذي أقام الله تعالى عليه هذا الوجود البشري.

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا [7] فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [8] قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [9] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [10] الشمس

انظروا إلى مشاهير العلماء والدعاة اليوم، وتدبروا عن أي القضايا يتحدثون، وإلى أي الفرق والمذاهب الدينية ينتمون، ومن أي المراجع يستقون أدلتهم..، لتقفوا بأنفسكم على حجم المأساة التي يعيش فيها هؤلاء، وهم لا يشعرون؟!

ومع كل هذه الجهود التي بذلها، ويبذلها، أئمة هذه الفرق الإسلامية، فهل تغير شيء في واقع المسلمين على مر العصور؟!

إن الشيء الوحيد الذي طرأ على هذه الدعوات كان من الناحية الشكلية فقط، أما جوهر معظم هذه المنابر فما هو إلا حلقة من حلقات التخاصم المذهبي الممتد إلى عصر الفتن الكبرى، هذا التخاصم الذي حمل للمسلمين التخلف والتفرق، والذي يزداد تأصيلا وتدعيما يوما بعد يوم.

حتى المحاولات التي ظهرت حديثا، تدعو المسلمين إلى العودة إلى القرآن، وإلى هداية القرآن..، فإذا بها تقبل من نصوص المصدر الثاني للتشريع ما يوافق القرآن والذي اصطلح علماء السلف على تسميته باسم "السنة النبوية"، فهؤلاء يشاركون بصورة غير مباشرة، في أزمة التخاصم، لأنهم ينطلقون في دعوتهم من تراث الفرقة أو المذهب الذي ولدوا فيه!!

إن هناك في التراث الشيعي مسائل، هي من أصول الإيمان والإسلام التي يكفر منكرها عند معظم الشيعة. انظر، على سبيل المثال، إلى مسألة الإمامة، يقولون:

إن ما صح عندهم من "الأحاديث النبوية" في هذه المسألة، قد جاء القرآن يؤيدها في الوقت الذي لا يرى أهل السنة ذلك، ويقولون: إن عندهم من "الأحاديث النبوية" ما يخالف ما ذهبت إليه الشيعة، وقد جاء القرآن أيضا يؤيدها!!

إن الهداية إلى تفعيل نصوص "الآية القرآنية" لا تتحقق والقلوب أسرى الموروث الديني للفرق والمذاهب المختلفة المتصارعة، فالهداية للمتقين!!

الم [1] ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ [2] البقرة

إن الإسلام بريء من كل تفرق في الدين، و"الآية القرآنية" قائمة بين الناس إلى يوم الدين، تدعوهم لتفعيل نصوصها لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وتحمل مسئوليتهم في الشهادة على العالمين.

إن الإنسان يولد وسط منظومة معرفية تتكون وتتشكل فيها شخصيته الدينية دون إرادة منه أو اختيار. فهل يستمر الإنسان على هذا الحال مسلوب الإرادة تابعا لمذهب آبائه، إلى أن يلقى الله تعالى؟!

إذن فعلى أي أساس سيقيم الله تعالى حساب الآخرة إذا كان هذا الوجود البشري كله قد ورث الكفر [أو الإسلام] عن آبائه، والمسئول الأول عن ذلك هم السلف..، إذن فليحاسبهم الله تعالى وحدهم وتنتهي القضية!!

إن مسئولية الإنسان أمام ربه مسئولية فردية وليست جماعية:

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً [13] اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [14] الإسراء

ولما كان من بدهيات المنطق السليم أنه لا إلزام بشريعة إلهية بغير دليل صحت نسبته إلى الله تعالى على وجه اليقين، إذن فهل راجع كل مسلم الأصول العلمية التي أقام عليها تدينه المذهبي، وتأكد من صحة نسبتها إلى الله على وجه اليقين؟! ألم يحذر الله تعالى الإنسان من تعطيل آليات عمل قلبه:

وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [36] الإسراء

ثالثا: أدوات فهم القرآن

وعلى أساس التفاعل المشاهد بين "الآيات القرآنية" و"الآيات الكونية"، القائم على ما حملته لنا "منظومة التواصل المعرفي" من علوم ومعارف، قومية وعالمية...، آمنت أنه لا إله إلا الله، وأن القرآن الحكيم هو آية رسول الله محمد، الدالة على نبوته، وصدق بلاغه عن الله عز وجل.

ومن خلال نصوص "الآية القرآنية" علمت أن مهمة الرسل هي دعوة الناس إلى التخلق بخلق الربانية، هذا الخلق الذي يقوم على تعليم كتاب الله ودراسته.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ [79]

آل عمران

إن "الربانية" سلوك إيماني حضاري، يقوم على إخلاص العبودية لله تعالى، وعلى تفعيل آيات ذكره الحكيم، بفقه قرآني، يواجه تحديات ومقتضيات العصر.

لذلك كان أول عمل قمت به هو الوقوف على الأدوات التي تعين المسلم على تعلم ودراسة وفهم نصوص "الآية القرآنية"، بهدف التخلق بخلق "الربانية"، اتباعا لسنة الأنبياء والمرسلين.

وهذه الأدوات هي:

1. آليات عمل القلب
2. اللسان العربي المبين
3. السياق القرآني
4. آيات الآفاق والأنفس
5. منظومة التواصل المعرفي

إن هذه الأدوات وحدة متكاملة مترابطة، ومنظومة متناغمة، غير منفصلة الأجزاء.

1. آليات عمل القلب

لقد خلق الله تعالى الإنسان بنفس تحمل الفطرة الإيمانية، التي فطر الله الناس عليها وبجسد يحمل آلات الإدراك، ومنها العين والأذن والأنف....، وبحواس متصلة بهذه الآلات يدرك الإنسان بها الأشياء ويتعرف عليها، وبقلب يحمل من الآليات ما يعين الإنسان على أداء مهمته في هذه الحياة.

والسؤال: لماذا خص الله تعالى الإنسان بكل هذه الآيات، وكل هذه النعم؟!

والجواب: لكي يستطيع، باختياره، أن يصل عن طريقها، إلى التوحيد الخالص لله عز وجل، والوقوف على فاعلية أسمائه الحسنى.

وإن الأصل أن تحكم الفطرة الإيمانية ما في النفس الإنسانية من عقائد، ومعارف وخبرات..، حسب الشريعة الإلهية. ولكن البيئة التي يولد فيها الإنسان، تقف دوما حائلاً دون تحقيق ذلك. لذلك أرسل الله تعالى الرسل لدعوة الناس إلى تغيير ما بأنفسهم، حتى يغير الله تعالى ما في واقعهم.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [53] الأنفال

إن الله تعالى قادر على أن يغير أحوالنا إلى الأفضل، إذا نحن غيرنا ما في أنفسنا إلى الأفضل. إن إرادة التغيير هي مسئولية النفس، بوقوفها على العلل الموجبة لهذا التغيير. لذلك فإن تغيير واقع الناس إلى الأحسن لا يتحقق إلا إذا قاموا بتغيير ما في أنفسهم إلى ما هو أحسن، حتى يستطيعوا مواجهة تحدياتهم بصورة أفضل.

لذلك كان على الإنسان أن ينظر في تدينه الوراثي للوقوف على وجه الحق فيه، من خلال ما أنعم الله عليه من نفس زكية، تحمل فطرة إيمانية، وآليات للتفكر والتعقل والنظر..، التي يستطيع الإنسان عن طريقها تفعيل هذه الفطرة، وإضاءة قلبه بنورها الإيماني.

إن الإنسان يولد بنفس مؤهلة لتلقي كافة العلوم والمعارف..، ومزودة بآليات تساعدها على الدخول إلى دائرة الإيمان العلمي اليقيني، القائم على الحجة والبرهان والتي تمكنه من أداء مهمة استخلافه في الأرض، وعمارتها، على أحسن وجه.

لذلك جاءت الرسالة الخاتمة "آية عقلية"، لتكون مفتاحا لعصر جديد، عصر العلم الاستدلالي القائم على الحجة والدليل والبرهان. لقد ختم الله تعالى برسالته الخاتمة عصر الآيات الحسية، التي لا تقوم حجتها إلا على من شاهدها، وقد جاءت هذه الرسالة الخاتمة "آية قرآنية" لتكون حجتها قائمة على العالمين إلى يوم الدين.

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [51] العنكبوت

ولكن هل يمكن أن يقيم الله تعالى حجته على الناس دون أن يزودهم بالأدوات والآليات التي تمكنهم من أداء ما أمرهم به؟!!

لذلك فإن من يريد التعرف على الإسلام، دون أن يقف على حقيقة النفس التي يحملها بين جنبيه، وخصائصها، ووظائفها..، فإنه سيضل الطريق إلى معرفة الحق.

وإن أول ما يجب على الإنسان معرفته عن هذه النفس هو ما تحمله من "قلب" و"فؤاد"، وحواس متصلة بهما، مع ملاحظة أن القرآن الحكيم قد استخدم لفظي "القلب" و"الفؤاد" بما يفهم منه أنهما شيئان مختلفان!!

ولبيان ذلك سألقي بعض الضوء على ما تحمله النفس من آيات ونعم لا تحصى وعلى رأسها نعمتي "القلب" و"الفؤاد"، وآليات عملهما، مستعينا ببعض آيات الذكر الحكيم. وعندما استخدم جملة "آليات عمل القلب" فإنني أعني بها آليات "التفكر" و"التدبر"، و"التعقل"، "والنظر"...... إلى آخر الآليات.

أ . الحواس في السياق القرآني

إن الحواس هي طريقنا إلى تحصيل العلوم والمعارف والخبرات..، اليقينية، أما المسئول عن تحولها إلى ظنون وأباطيل وتحريفات، فالقلب والفؤاد، كما سيأتي بيانه.

ولقد ورد لفظ "الحس" في القرآن في خمسة مواضع، وكلها تنقل للمرء حقائق من الواقع لا زيف فيها، حسب ما ورد في الآيات التالية:

1. فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ [52] آل عمران

لقد أدرك عيسى، عليه السلام، الكفر في تصرفاتهم، فحدد موقفه منهم.

2. يَا بَنِي اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ [87] يوسف

والمعنى: أي استقصوا خبره بحواسِّكم.

3. وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً [98] مريم

والمعنى: هل ترى لهم من أثر، أو تسمع لهم ولو صوتا خفيا؟!

4. وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ [11] فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ [12] الأنبياء

فهؤلاء القوم قد أدركوا قدوم البأس، برؤية ما أزعجهم، أو بسماع أصوات مؤذنة بهلاكهم، كالصواعق والرياح..، لذلك حاولوا الهرب من هذا البأس.

5. لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ [102] الأنبياء

والمعنى: التأكيد على بعدهم عن النار، فلا يجدون أي أثر لها، كيف وقد نزلوا منازلهم في الجنة؟!

لذلك كان الإنسان مسئولا مسئولية كاملة عن توظيف حواسه لأداء المهمة التي خلقه الله تعالى من أجلها وهي معرفة الحق الذي لا شبهة فيه.

وتبدأ رحلة الإنسان مع الحواس بإدراكه الأشياء عن طريق آلات الإدراك: الأذن والعين..، ثم تبدأ الحواس [السمع والبصر...] في التعرف على هذه المدركات، حسب المخزون والتراكم المعرفي الموجود في مستودع القلب، ومن خلال مراكز التدبر والتفقه والتعقل والتفكر..، الموجودة في الفؤاد، والتي تميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات. ودليل ذلك الآيات التالية:

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [78] النحل

إن النفس الإنسانية تولد خالية من المعارف والعلوم والخبرات..، فإذا سمع الإنسان شيئاً، أو أبصره، فإن قلبه يسجل فهمه، وتعرفه على هذا الشيء، وإحساسه به، ومدى تأثره وتعاطفه معه، ليصبح "القلب" مستودع العقائد، والعلوم، والمعارف والخبرات الإنسانية. إذن فلماذا ذكرت "الأفئدة" في هذا السياق ولم تذكر القلوب؟! فلنتدبر هذه الآية:

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ [179] الأعراف

ولقد دعا الله تعالى الناس إلى السير في الأرض، لينظروا [بأبصارهم] ويعتبروا [بقلوبهم] ويعقلون بها آيات الله في الآفاق والأنفس..، أوْ يستمعوا بآذانهم أخبار الأمم المكذبة فيعتبروا..، وإلا فمجرد سير البدن الخالي من التفكر والاعتبار لا يجدي وغير موصل إلى المطلوب.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [46] الحج

يفهم من الآيات أن العبرة، بسماع الأخبار، عن طريق حاسة السمع، وآلتها الأذن، ورؤية الآثار، عن طريق حاسة البصر، وآلتها العين..، لا تتحقق عن طريق هاتين الحاستين، إلا بفهم، وتدبر، وتعقل ما يسمعه الإنسان أو يرآه..، لذلك أسند الله تعالى هذه المسئولية إلى القلب، وإن كانت في حقيقتها هي مسئولية "الفؤاد"، فلماذا؟!

لأن "القلب" هو المستودع الرئيس للعلوم والمعارف، ومركز الأحاسيس والمشاعر وما يقوم به الفؤاد من أعمال التدبر، والتفكر، والتفقه، والتعقل..، جاءت بناء على طلب "القلب"، فالقلب والفؤاد لا ينفصلان أبدا، فإذا انفصلا أصبح القلب مجرد مستودع، لا يدرك صاحبه، ولا يشعر، ما فيه.

ودليل ذلك أن الله تعالى ذكر أن تحصيل العلوم يتم عن طريق السمع والبصر والفؤاد [آية سورة النحل السابقة]، وحمل هذه الحواس مسئولية ذلك، فقال تعالى:

وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [36] الإسراء

وهل يمكن تحصيل العلوم من غير تدبر وتفقه وتعقل؟!

لذلك عقب الله تعالى على آية سورة الحج السابقة [46] بقوله:

"فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ".

إن حاسة البصر، التي تنقل الصور نقلا أمينا، لا تتحمل مسئولية عمى القلب الذي كذب عليه "الفؤاد"، ونقل إليه معلومات خاطئة، ثمرة التراكم المعرفي الباطل والموروث عن الآباء. تدبر قول الله تعالى:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ [42]

فانظر كيف أن حاسة السمع وحدها لا تكفي في إقامة الحجة على الإنسان يوم القيامة، بل لابد من أن يمر المسموع على آليات التدبر، والتفكر، والتعقل، والنظر.. هذه الآليات المتصلة بمركز التحكم "الفؤاد".

وكذلك رؤية العين وحدها لا تكفي، وإنما لابد من هداية القلب، فقال تعالى بعدها:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ [43] يونس

لذلك لم يكن لأفئدة الأنبياء أن تكذب مطلقا، لأن قلوبهم قد حملت الحق المطلق.

فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى [10] مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [11] النجم

إن ما رآه رسول الله، عليه السلام، بحاسة بصره، قد ترجمه "الفؤاد" إلى قلبه على الحقيقة، لأنه فؤاد رسول الله، عليه السلام، الذي لا يكذب على قلبه مطلقا.

لذلك جاء السياق بأسلوب يفهم منه أن الذي رأى هو "الفؤاد"، وذلك لبيان أن ما رآه رسول الله ببصره كان علما يقينا. تدبر قوله تعالى مبينا مسئولية الحواس والفؤاد دون غيرهما: "كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً".

إن لفظ "أولئكَ" يشارُ به إلى العقلاء، لذلك عبَّر عن السَّمعِ، والبصر والفؤاد بـ "أولئك" لبيان مسئوليتها كحواس لها إدراك تعقل به، وأن الذي يتحمل هذه المسئولية هو الإنسان. مما قد يفهم منه أن لهذه الحواس برامج خاصة بها ومستودعات للذاكرة، قد يكون مكانها القلب، وهذا ما يجعلها تأتي، كذات إنسانية تدلي بشهادتها يوم الحساب. تدبر قول الله تعالى:

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [19] حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [20] وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [21] فصلت

لذلك فعندما يأتي السياق القرآني بمدح أم ذم آلات الإدراك، أو الحواس، فإن المقصود هو "الفؤاد" والقلب. ذلك أن الآلة أو الحاسة لا تنقل إلا الحق، أما صاحبها فهو الذي لا يقول الحق، ثمرة ما في قلبه وفؤاده.

إنه لم يرد في كتاب الله أن آلات الإدراك أو الحواس وسيلة للمعرفة إلا وهما مجموعان مع القلب أو الفؤاد، وذلك لبيان أن الغاية من الإدراك الحسي ليس التحسس بل فهم المحسوس وتعقله، والعمل بما جاء به.

لقد سمع المكذبون الرسل وأبصروا دلائل الوحدانية، لكنهم لم يستجيبوا لدعوتهم وجاءوا يوم القيامة يعترفون بتقصيرهم، ووقوفهم على حقيقة عمل حواسهم، وأنها لا تنقل إلا الحق إذا أراد "الفؤاد" ذلك.

وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ [12] السجدة

وعلى أساس ما سبق بيانه، يمكننا القول:

. إن الفؤاد: هو مركز "الفهم" و"الإدراك" و"العواطف" الإنسانية، لذلك كان مسئولا أمام الله عن تفعيل آليات عمله: من تدبر، وتفكر، وتعقل..، كما أمره الله تعالى.

. إن القلب: هو مستودع العلوم والمعارف والخبرات..، ومركز المشاعر، وردود الأفعال..، التي تحدث نتيجة عمل "الفؤاد" وتصرفاته، فإذا انفعل "الفؤاد" بعاطفة معينة فإن رد الفعل يحدث على الفور في القلب.

فهناك فرق بين العواطف والمشاعر، فتظهر عواطف الإنسان عند تعرضه لمواقف معينة مع آخرين، ويكون مصدرها هو "الفؤاد"، كما نفهمه مما سبق بيانه من آيات الذكر الحكيم، والذي يبيّن طبيعة وقوة هذه العواطف، هو ما ينتج عنها من ردود أفعال ومشاعر في "القلب".

. إن "الختم" أو "الطبع" يأتي على القلوب، وليس على الأفئدة، لأن القلوب هي المستودع الرئيس لأعمال وتصرفات "الأفئدة"، وما هذه "الأفئدة" إلا وسيط بين القلوب والحواس. لذلك شبه الله تعالى الإنسان الذي أوقف عمل فؤاده، بالأنعام [179/الأعراف] بل بمرتبة أضل، لأنه لم يقم بتفعيل ما ميزه الله به عنها، ألا وهو "الفؤاد"، فاستحق الختم أو الطبع على قلبه.

لذلك أرى أن الإنسان مكون من جسد ونفس وروح، أما الجسد فيحمل كل ما هو مادي يمكن رؤيته والتعرف على طبيعته، كالقلب، والمخ، وآلات الإدراك: الأذن والعين..، وسائر الأعضاء.

وهذا الجسد يحمل مراكز حسية وعصبية..، متصلة بالنفس التي تحمل الحواس والفؤاد، كآية من آيات الله تعالى نعرفها بآثارها وليس بماهيتها، وعلى أساس هذه العلاقة الوثيقة بين المادي والنفسي تقوم حياة الإنسان ليؤدي مهمته التي خلقه الله من أجلها.

أما الروح فهو غير المادي الذي يمد الجسد بالطاقة التي تحافظ على حيويته وفاعليته. وهذا الروح لا يفارق جسد الإنسان مطلقا، فهو باق يعمل عند نومه ومتوقف عن العمل عند وفاته، انتظارا ليوم البعث، حيث يعود ليمد الجسد مرة أخرى بطاقته ليحاسب الإنسان على ما قدمت يداه.

إن "الروح" لا يأتي في القرآن إلا بصيغة المذكر، بينما الذي يفارق الجسد هو النفس، وهي "مؤنثة":

اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [42] الزمر

فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ [83] وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ [84] وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ [85] فَلَوْلا إِنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ [86] تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [87] الواقعة

تدبر قوله تعالى: "فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ". "تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ"

إن كثيرا من الناس يظنون أن الوفاة تحدث بخروج الروح من الجسد، وأن علامة ذلك توقف الدورة الدموية بتوقف القلب. لذلك نجدهم يستخدمون كلمة "الروح" على أنها "مؤنثة" فيقولون: "خرجت روحه"!! وممن يقولون بذلك ابن تيمية، فيقول في سياق الحديث عن العقل والنفس: "... كما أن روح الإنسان إذا [فارقت] جسده [كانت] مفارقة للمادة التي هي الجسد..."!!

والحقيقة أن كلمة "الروح" لم ترد في جميع آيات الذكر الحكيم مؤنثة، وإليكم بيان ذلك:

1. وردت مرة واحدة بمعنى التأييد بالنصر والتثبيت على الإيمان، حيث قال تعالى:

"... أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ..." [22] المجادلة

2. ووردت [9] مرات بمعنى روح القدس، جبريل عليه السلام، كقوله تعالى:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ [193] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ [194] الشعراء

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [102] النحل

فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً [17] مريم

3. ووردت [10] مرات بمعنى الأمر الإلهي الذي يتولى تنفيذه جبريل، عليه السلام سواء كان هذا الأمر:

. خاصاً بإنزال الآيات القرآنية، كقوله تعالى:

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [52] الشورى

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً [85] وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً [86] الإسراء

. أو كان هو الأمر [الروح] الإلهي الذي قام به هذا الوجود البشري، بخلق آدم عليه السلام:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ [71] فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ [72] ص

فنفخ الأمر [الروح] الإلهي في القرآن الحكيم ليس عملا متكررا يقوم به جبريل عليه السلام، مع كل مولود، وهو في مراحل تكونه في بطن أمه، بعد شهر أو اثنين أو ثلاثة..، ومع كل مولود تسجد الملائكة..، وإنما هو:

أولا: الأمر [الروح] الإلهي الأول، الذي به خلق الله تعالى آدم وزوجه، والذي على أساسه سجدت الملائكة، وبه جاءت ذرية آدم حاملة معها "جينات" هذا الأمر، المكتوب داخل كل خلية إنسانية.

إنه من أول يوم يتم فيه تلقيح البويضة بالحيوان المنوي يتكون الإنسان في هذه الخلية [البويضة المخصبة].

ثانياً: الأمر [الروح] الإلهي الذي به خلق الله عيسى عليه السلام من غير أب. وهذا الأمر لن يتكرر أبدا، فقال تعالى:

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ [91] الأنبياء

فهذا الأمر الإلهي، الذي به ولد عيسى، عليه السلام، من غير أب، ربما كان لاستكمال الـ [23] كروموزوم الخاصة بالأب [غير الموجود]. فقد حملت خلايا عيسى عليه السلام [46] كروموزوما لازمة لخلق الإنسان، منها [23] من مريم عليها السلام والباقي جاء به الأمر [الروح] الإلهي.

ولقد بين الله تعالى هذه المسألة بما لا يدع مجالا للشك، فكما كان خلق آدم آية بالأمر الإلهي "كن"، فإن خلق عيسى، عليه السلام، أيضاً كان آية، بالأمر الإلهي "كن". قال تعالى:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [59] آل عمران

لقد خلق الله تعالى آدم من تراب، وسواه وصوره، ثم نفخ فيه من روحه، أي أمره الذي حمل الخلية الإنسانية، وخلق زوجه من جنس النفس التي خلق منها آدم. تدبر قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا.." [1] النساء

إن آية خلق عيسى، عليه السلام، من غير أب، هي في الأمر الإلهي "كن" لتلقيح بويضة مريم، عليها السلام، لتصبح بويضة مخصبة، تأخذ طريقها الطبيعي في رحمها، فيولد عيسى كما ولد سائر البشر.

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن الروح الذي نفخه الله تعالى في آدم، عليه السلام، هو الأمر الإلهي المكتوب في كل خلية من خلايا البشر إلى يوم الدين. أما الذي يفارق الجسد عند الموت فهو النفس، وليس الروح.

إن قيمة الإنسان ليست في كيانه المادي، الذي نراه شاخصاً أمامنا، وإنما فيما وراء هذا الكيان من نفس اختارت طريق الفلاح، فتزكت واهتدت، واتبعت صراط ربها المستقيم.

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا [7] فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [8] قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [9] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [10] الشمس

إن النفس التي ألهمها الله تعالى فجورها وتقواها، هي اللامادية، التي تحمل الحواس والفؤاد وآليات عمله، والذي جعله الله تعالى يؤدي مهمته من خلال أعضاء الجسد [المادي] وفق منظومة من الآيات يستحيل حصرها.

ب . الفؤاد في السياق القرآني

لقد ورد لفظ "الفؤاد"، في القرآن الحكيم، على النحو التالي:

1. وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [36] الإسراء

إن الحواس، وأهمها السمع والبصر، تنقل المدركات إلى الفؤاد، فيتعرف عليها من خلال مستودع المعارف والخبرات..، الذي يحمله القلب. لذلك نلاحظ أن الله تعالى يجمع بين السمع والبصر والفؤاد في سياق واحد.

2. وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [78] النحل

3. وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ [78] المؤمنون

4. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ [9] السجدة

5. قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ [23] الملك

نلاحظ أن الآيات [2–5] ختمت بوجوب الشكر على نعمة السمع والبصر والفؤاد ما يفهم منه أن شكر الله على هذه النعمة يجب أن يكون شكرا عمليا، وذلك باستخدام هذه المستقبلات فيما يرضي الله عز وجل.

إن قوله تعالى: "وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" أمر بعدم اتباع غير ما ثبت بالدليل العلمي اليقيني، لا الظني. ومجيء "القفو" بصيغة الأمر يفهم منه وجوب أن يكون الاتباع قائما على الدليل والحجة والبرهان.

وإذا كانت حاسة "السمع" هي المسئولة عما تنقله آلة الأذن..، وحاسة "البصر" مسئولة عما تنقله آلة العين..، فعن أي شيء يكون "الفؤاد" مسئولا؟! تأتي الإجابة على هذا السؤال في سياق قوله تعالى:

7.6 وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون [26] الأحقاف

لقد أنعم الله تعالى على قوم هود، عليه السلام، بنعمه الكبرى، فلم ينقصهم شيئا يخل بإدراكهم الحق، واتباعهم رسولهم، لكنهم أهملوا الانتفاع بهذه النعم، فجحدوا بآيات الله واستهزؤوا بها، فحاق بهم ما كانوا يستهزئون به.

وإذا كان السمع مسئولا عن تلقي آيات الذكر الحكيم، والبصر مسئولا عن رؤية آيات الآفاق والأنفس، فإن الفؤاد مسئول عن تدبر ما يسمع، والتفكر فيما يُرى.. ليقف على دلائل الوحدانية فلا يجحد آيات الله تعالى.

وإن من سنن الله تعالى أن تتقلب الحواس، السمع والأبصار..، ومركز إدارتها الفؤاد..، إذا استمر المرء على تكذيبه وجحوده وكفره بآيات الله تعالى، وإعراضه عن دعوة الرسل..، وذلك عقابا له على عدم تفعيله هذه الحواس على الوجه الذي يرضي الله تعالى.

8. وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [110] الأنعام

ومن أهوال يوم القيامة أن تشخص الأبصار من الخوف، فلا تطرف أعينهم، ولا يستطيعون تحويلها، ويسرع الناس الخطى وأعناقهم مائلة إلى أسفل من الذل، تخلو أفئدتهم من كل ما من شأنه أن يثبتهم في هذا الموقف، من إيمان بالله، وتصديق لدعوة رسله.

9. وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ [42] مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ [43] إبراهيم

وهنا تظهر العلاقة بين الحواس، التي تأتي يوم القيامة على هذا الحال: "تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ"، "مُهْطِعِينَ"، "مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ"، "لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ"..، وبين الفؤاد الذي أدار هذه الحواس بصورة لا ترضي الله تعالى، فكان سببا أن يأتي الإنسان يوم القيامة، وقد فقد كل شيء!!

وهناك أفئدة تصغى إلى شياطين الإنس والجن، وتتبع وحيهم الشيطاني:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ [112]

10. وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ [113] الأنعام

إن إصغاء "الأفئدة" إلى الوحي الشيطاني، وإعراضها عن الوحي الإلهي..، لا يعني مجرد الاستماع إلى هذا الوحي، وإنما الرضا به واتباعه، وهذا دليل على أن من مهام "الأفئدة" الرئيسة أن تتحمل مسئولية القرار الإيماني الذي سيتخذه أصحابها.

إن الإصغاء عملية تدبر وتعقل..، تهدف إلى الفهم الواعي، ولكن أفئدة قلوب الكافرين لا تريد أن تفهم أصلا لعدم إيمانها بالآخرة، واتباعها هواها بغير علم.

وليس معنى أن الفؤاد يرى ويسمع أنه يقوم بمهمة العين والأذن..، وإنما هو الذي يترجم ما تراه العين، وما تسمعه الإذن على الوجه الصحيح، أو غير الصحيح!! إن "الفؤاد" يتلقى المعلومة..، فيميل إليها..، ويرضى بها..، ثم يأخذ صاحبه قرار العمل والتنفيذ: "وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ".

لذلك فإن ما تقترفه الأفئدة سيكون هو محتوى كتاب الإنسان الذي سيقرؤه بنفسه يوم القيامة. فتدبر قول الله تعالى في سورة الهمزة:

11. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ [5] نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ [6] الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ [7]

تدبر هذا التعبير القرآني البليغ لوصف النار: "الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ".

فها هي النار تحمل من الصفات ما يجعلها تطلع على الأفئدة، لتعطي أصحابها نوع العذاب الذي يستحقونه.

ونلاحظ أن العذاب ليس للأفئدة، وإنما لأجساد أصحابها، ولقلوبهم [المادية] التي كانت مستودعا للمعارف والعقائد الباطلة. لذلك قال تعالى:

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ [8] فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ [9] الهمزة

فلم يقل الله تعالى: "إنها عليها"، أي على الأفئدة، وإنما قال "عليهم"، أي على أصحابها.

إن سبب دخول الناس جهنم هو تعطيلهم لآيات عمل أفئدتهم، فقد كانوا لا يحسنون الاستماع، وإذا أحسنوا السمع لم يتدبروا ولم يتفكروا بأفئدتهم ما يلقى على مسامعهم!!

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ [10] فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ [11] الملك

وإذا كانت هناك "أفئدة" قد أخذت قرارها بالإعراض عن الوحي الإلهي، واتباع الوحي الشيطاني، فاستحقت عذاب جهنم..، فهناك "أفئدة" قررت أن تسرع باتباع الوحي الإلهي ومشاركة المؤمنين توحيدهم وعبادتهم لله تعالى، فاستحقت نعيم الجنة.

لقد دعا إبراهيم، عليه السلام، ربه أن يشارك الناس ذريته في عمارة هذا الوادي الذي تشرف بوجود بيت الله الحرام فيه..، بعاطفة مؤمنة تدفع أصحابها إلى أداء مناسك الحج، عن حب وقناعة ذاتية.

12. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ [37] إبراهيم

لقد أراد إبراهيم أن يعبر عن رغبته في أن يأتي الزائرون إلى البيت الحرام، وهم على شوق ومحبة، فاستخدم لفظ "الأفئدة" [مركز العواطف] في سياق يصورها وكأنها طيور ترفرف بأجنحتها مسرعة قاصدة البيت الحرام، ومن يعيشون حوله: "اَجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ".

ولا شك أن هذه "الأفئدة" عندما قصدت البيت الحرام كان ذلك عن قرار إيماني وفهم واع لما هي مقبلة عليه.

لذلك نلاحظ أن تثبيت الله لرسوله محمد، عليه السلام، كان محله "الفؤاد"، فتدبر:

13. وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [120] هود

إن كل ما أنزله الله تعالى على رسوله محمد، عليه السلام، من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم، زاده علما وتذكرا بسنن الأنبياء، ما وجد أثره في فؤاده صبرا وطمأنينة.

إن الصراع بين الحق والباطل، من سنن الوجود البشري، وقبول صحابة رسول الله الحق، واعتصامهم به، ومخالفتهم لما كان عليه قومهم من باطل..، ما كان ليحدث لولا أنهم أعملوا آليات عمل أفئدتهم، فعرفوا الحق واتبعوه.

ولقد بيّن الله تعالى أن سبب تنزيل القرآن منجما هو لتثبيت فؤاد رسول الله، عليه السلام، وهذا دليل على أن الفؤاد هو المسئول عن آليات التفكر والتعقل..، المتعلقة بالقضايا الإيمانية . تدبر قول الله تعالى:

14. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً [32] الفرقان

ج . القلب في السياق القرآني

إنه من السهل أن تُجبر إنسانا أن يسجد لك بجسده حاملا معه قلبه الذي في صدره ولكن من المستحيل أن تجبر فؤاده أن يسجد لك مهما أوتيت من قوة. فهل إذا سجد القلب مع الجسد فإن ذلك يعني قناعة صاحبه بهذا السجود؟!

إن القلب، الذي في الصدر، الذي يستطيع أن يصل إليه الإنسان، لإنهاء حياة آخر أو الإبقاء عليها..، إن كان هو المستودع العام للعقائد، والعلوم والمعارف والخبرات.... الذي يتحمل الإنسان مسئوليتها بنفسه، إلا أن هذا القلب لا يقوم بوظيفته الحقيقة بمعزل عن "الفؤاد"، مركز الفهم، والعواطف، وآليات التدبر والتفكر والتعقل..، التي بدونها ما كان الإنسان.

إن جسد الإنسان آية من آيات الأنفس، وكل عضو من أعضائه، وكل حاسة من حواسه، التي لا تحصى، تعمل وفق نظام محكم، وشبكة للمعلومات تعمل بدقة متناهية ومراكز إحساس متصلة بمنظومة من الأعصاب يعجز العلم أن يصل إلى حقيقة وكيفية عملها.

فمثلا: إذا تأثر "الفؤاد"، نتيجة عاطفة تجاه شيء معين، فإن هذا التأثر ينعكس على القلب بشعور معين..، من خلال "الجهاز العصبي المركزي"، مما ينتج عنه تأثر كافة الأعضاء بصورة قد لا يلحظها كثير من الناس. تدبر قول الله تعالى:

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [23] الزمر

فإذا كان الجلد يكسو جسد الإنسان كله، فإن عاطفة المسلم وتفاعلها مع آيات الذكر الحكيم، تُحدث تأثيرا في جسده، يظهر على هيئة "قشعريرة" في الجلد، ثم "لين"..، من خشية الله تعالى. فانظر كيف تتناغم من المادي، كالقلب، والمخ، وآلات الإدراك وباقي الأعضاء..، مع غير المادي، كالحواس، والفؤاد.

ويأتي القلب في السياق القرآني باعتبار وظيفته، كمادي، محله الصدر. كما يأتي باعتبار وظيفته الرئيسة كلامادي، لا يعمل بمعزل عن "الفؤاد".

لذلك فإن الذين يستقبلون العقائد والمعارف والخبرات... الباطلة، ويؤمنون بها ويقيمون حياتهم على أساسها، هؤلاء قد أخذوا بإرادتهم، واختيارهم، السير في طريق "الطبع على القلوب"، فإذا بأمر الله الخاص بالطبع [أو الختم] والقائم في القلب، يعمل فيشعر صاحبه أنه قد حُجب عن نعمة ونور الهداية.

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمْ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً [155] النساء

إن الذين ساروا في طريق "الطبع على القلوب" قد حرموا أنفسهم نعمة الحواس وآليات عمل "الفؤاد"، فلم يعد القلب يتدبر أو يفقه، ما يسمع أو يفكر ويتأمل، ما يرى.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ [100] الأعراف

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ [87] التوبة

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ[93] التوبة

إن الإنسان يمكن أن يُحرم من الهداية بحرمانه من الانتفاع بوسائلها كلها، فهؤلاء الذين عاشوا في غفلة عن ذكر الله، قد حرموا أنفسهم نعمة الإنسانية!!

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ [108] النحل

إن الغفلة عن ذكر الله تحرم القلب نور الهداية ليحل محله ظلمات الهوى. فإذا ما تمكنت هذه الظلمات من القلب، نجده يتجاوز الحدود، ويختل توازنه، فيكفر بأنعم الله.

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً [28] الكهف

لذلك كان على المسلم ألا يغفل عن التفكر الدائم في دلائل الوحدانية، وأن يقيم الدعاء حمدا لله تعالى وشكرا له على عظيم فضله ونعمه، وألا يبتغي بعمله إلا وجه الله تعالى. إن عدم شكر الله، يعرض الإنسان إلى خطر حرمانه من هذه النعم، فانظر كيف عبر القرآن عن ذلك بتعبير دقيق محكم، حيث يقول تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ [46] الأنعام

لقد شبه الله تعالى سلب الإنسان بعض نعمه، بانتزاع الآخذ شيئا من مكانه، والله تعالى، وهو المعطي، المنعم، القادر أن يأخذ ما أعطاه..، فمن ذا الذي يستطيع أن يرجع ما أخذه الله تعالى؟!

وتدبر قوله تعالى: "وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ". إن الختم على القلوب أمر إلهي بأن يتوقف القلب عن عمله الرئيس كمستودع عام، لمعارف ومشاعر الإنسان الإيمانية..، فيقسو القلب، ولا يجد إلى هداية الله سبيلا.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [16] الحديد

وقد لا يأتي الختم على القلب وحده، وإنما على حاسة السمع أيضا، فتتحول الأذن إلى مجرد آلة لا اتصال لها بالفؤاد.

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [7] البقرة

إن "الختم"، في السياق القرآني، هو منع آلات الإدراك [كالقلب] والحواس [كالسمع والبصر] من أداء وظيفتها في التعرف على الحق وقبول دعوة الرسل. وأن ما يحدث من "ختم" على القلوب، يكون بإرادة الإنسان نفسه ومشيئته، أما نسبة هذا "الختم" إلى الله تعالى فذلك باعتبار أن الله شاء أن يخلق الإنسان مختارا، وأن يكون تفعيل عمل القلب والفؤاد بإرادته.

ولا يفهم أن الغشاوة قد شملت السمع والأبصار، ذلك أن الأسماع لا تناسبها الغشاوة وإنما الذي يناسبها هو الأبصار، وقد جاء بيان ذلك في قوله تعالى:

أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [23] الجاثية

ولقد فرق الله تعالى بين القلب، كمستودع معرفي، وبينه كمنظومة عاقلة متصلة بالفؤاد مسئولة عن كل تصرفاتها. فتدبر قول الله تعالى في سورة آل عمران:

وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [154]

فالآية تتحدث عن وجود شيئين في الصدر، أحدهما في الصدر، والآخر في القلب فما هما؟!

1. لقد بين الله تعالى أن القلب مكانه الصدر، فقال تعالى:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [46] الحج

2. عندما تحدث السياق القرآني عن شرح قلب الإنسان لذكر الله، عبر عن ذلك بشرح الصدر، مما يفهم منه أن المقصود بما في الصدور هو القلب:

أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [22] الزمر

إن الله تعالى لم يقل "أفمن شرح الله قلبه" لأن شرح [القلب] لا يتحقق بمعزل عن عاطفة [الفؤاد] الموجود في القلب.

3. عندما تحدث القرآن عن هداية القلب بين أن الطريق إلى ذلك هو شرح الصدر فقال تعالى:

فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ [125] الأنعام

وقال تعالى في سورة التغابن، مبينا أن الهداية محلها القلب:

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [11]

4. وبين الله تعالى في سورة العنكبوت، أن الصدر محل آيات الذكر الحكيم:

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ [49]

ونحن نعلم أن الله تعالى قد أنزل القرآن على قلب رسوله محمد، عليه السلام، فهذا يعني أن المراد بما في الصدور القلب.

ومما سبق بيانه، نعلم أن "الفؤاد"، غير المادي، والذي هو محل "التمحيص" مكانه القلب، فهما لا ينفصلان.

فقوله تعالى: "وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ"، أي يبتلي القلب.

وقوله تعالى: "وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ"، أي يمحص الفؤاد.

وإذا كانت القلوب محل العقائد، والأفكار، والمعارف، والخبرات..، فإنه على قدر موافقة ما في هذه القلوب مما لا يرضي الله تعالى، تكون نسبة ما يعتريها من أمراض سواء كانت عقدية أو نفسية.

إن الشهوة الغريزية، عندما تخرج عن حدودها المشروعة، تتحول إلى مرض نفسي خطير في القلب، يجعل حياة صاحبه لا تتلاءم إلا مع البيئات المنحلة الملوثة فكريا الأمر الذي قد يصل به إلى الجنون.

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً [32] الأحزاب

وإن الانحراف عن صراط الله المستقيم، يبدأ مرضا عقديا يسيرا، فإذا أصر المرء على أن يستمر في انحرافه، فإن سنة الله، التي لا تتبدل ولا تتغير، تقضي أن يزداد هذا المرض، حتى يتمكن من القلب وآليات عمله كلها.

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [10] البقرة

د . القلب وعلاقته بالفؤاد

قد يتعرض "الفؤاد" إلى مواقف قد لا يستطيع أن يصمد أمامها، وهذا يتوقف على مدى انفعال الفؤاد مع هذا الموقف. فلقد ألقت أم موسى، عليه السلام، وليدها في اليم كما أوحى إليها الله.

إذن فموضوع هذا الوحي مسألة إيمانية أصبح مكانها في القلب وكان من المفترض أن تكون سببا في تثبيت عاطفة فؤادها، المشتعلة تجاه وليدها بسبب إلقائه في اليم خاصة وقد حملت هذه المسألة الإيمانية لها البشرى بنجاته.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ [7] القصص

ولكن..، ولهول الموقف، والخوف على وليدها، بعد أن ألقته في اليم..، تغيبت هذه المعلومة الإيمانية عن فؤادها، وأصبح فارغا منها.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ [10] القصص

لقد اضطرب حال أم موسى، وفرغ فؤادها من كل ما من شأنه أن يثبتها في هذا الموقف، ولم يبق فيه إلا عاطفة الخوف على وليدها، حتى كادت أن تدل على مكانه.

فجاء تثبيت الله لها، عن طريق الربط على القلب الذي حمل البشرى بنجاته..، فإذا بفؤادها يتعقل الأمر، فهدأت أعصابها، وكان ثمرة هذا التعقل قرار حكيم لم يكن يُتوقع أن يصدر منها بعد هذا الابتلاء، وهو أن طلبت من أخته أن تتبع خط سيره في اليم.

وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [11] القصص

ونلاحظ أنه عندما أصبح فؤاد أم موسى فارغا، لم يقل الله تعالى "لولا أن ربطنا عليه"، وإنما قال "لولا أن ربطنا على قلبها"، لأنه في مثل هذه المواقف العصيبة يكون المطلوب هو تثبيت المعلومة الإيمانية فكما أن القلب محل لمشاعر الخوف والرعب.. فإنه أيضا محل الأمن والطمأنينة، فيقول الله تعالى:

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [126] آل عمران

إن تفعيل أعمال "القلب"، وعلاقتها بآليات عمل "الفؤاد"، هو أول الطريق إلى صراط الله المستقيم. وإن تفاعل ذلك مع الفطرة الإيمانية يُشعر الإنسان بحاجته إلى أن يتلقى عن خالقه منهج ونظام حياته، فيحاول أن يبحث عن هذا المنهج، وعن هذا الكتاب الإلهي، وسط هذا التراكم المعرفي الموروث.

إن "القلب" و"الفؤاد" تربطهما آليات تعمل في منظومة تكاملية محكمة، لا يمكن فصل إحداها عن الأخرى. فعندما يستخدم السياق القرآني آلية من هذه الآليات، لبيان وظيفة معينة لها، فهذا لا يعني أن هذا فقط هو عملها.

إن "آلية التعقل"، على سبيل المثال، تتداخل مع عمليات التدبر، والتفكر، والتفقه والتذكر..، وذلك بنسب متغيرة. وكذلك إذا نظرنا إلى "آلية التفكر" نجدها تتداخل مع "آلية التعقل"..، ومع باقي الآليات. وفيما يلي نبذة عن بعض هذه الآليات:

آلية التدبر:

إن التدبر هو دراسة ما تنتهي إليه دلالات الكلم ومراميه البعيدة. لذلك فإن آلية "التدبر" هي الجامعة التي توظف آليات التفكر والتعقل والنظر..، من أجل الوصول إلى الفهم العميق، وحقائق الأمور، والنظر في عواقبها وما قد يخفى منها.

وإن اللافت للنظر، أن عملية "التدبر" لم ترد في كتاب الله إلا في أربعة مواضع فقط كلها جاءت في سياق الحديث عن تدبر القرآن. فيقول الله تعالى:

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً [82] النساء

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ [23] أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [24] محمد

فلماذا لم يقل الله تعالى: "أفلا يتفكرون في القرآن"، أو "أفلا يتعقلون القرآن"، وقال: "أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ"، ثم عقب على هذا الأمر بقوله تعالى: "أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا"؟!

لأن الوقوف على عطاء "الآية القرآنية" لا يتحقق بمجرد قراءة نصوصها، وفهم معاني كلماتها، وإنما بالوقوف على عطاءاتها المتجددة مع كل عصر، الأمر الذي يستلزم أن تدلي كافة التخصصات العلمية بدلوها في هذه العملية.

لذلك جاء الحديث عن "أقفال القلوب" في سياق الاستفهام الإنكاري، "أفلا يتدبرون القرآن" ليفهم منه أن آلية "التدبر" يجب تفعيلها لفهم آيات الذكر الحكيم عن طريق تفعيل آليات عمل الفؤاد، لأنه يستحيل أن يطلب الله تعالى من الناس أن يتدبروا القرآن وهم لا يحملون أدوات وآليات تدبره!! فالآية تبيّن أن المخاطبين يحملون الأدوات والآليات ولكنهم لا يريدون تفعيلها!! فهناك قلوب عليها أقفال، وأصحاب هذه القلوب يعيشون ويتحركون ويتعاملون مع الناس، وقلوبهم مغلقة!!

ونلاحظ أن هذا الأمر بتدبر "القرآن" دليل على وجوب تدبره كله، وليس بعض سوره أو آياته..، وذلك للوقوف على البراهين الدالة على أنه حقا من عند الله تعالى.

كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [29] ص

وإنه كلما ازداد المتدبر للقرآن تدبرا انكشف له من المعاني المكنونة ما كان خافيا من قبل، فيتذكر ما فيه موعظة له، وما يوقظه من غفلاته.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الأَوَّلِينَ [68] المؤمنون

ومن النظر في سياق الآيات نعلم أن "التدبر" لا يؤتي ثماره إلا من خلال قلب حي غير مُغيّب، فالقرآن منهج هداية، وشفاء لعلل النفس والمجتمع.

ولكن كيف تصل الهداية، وكيف يصل الدواء، والأقفال محكمة الغلق على القلوب؟!

لقد جاءت سورة "العلق"، تربط بين آية من آيات الأنفس، وهي خلق الإنسان من علق، وبين الأمر بالقراءة، وتعليم الإنسان بالقلم، وتعليمه ما لم يعلم..، فهل يمكن أن يتحقق ذلك بمجرد قراءة هذه الآيات؟!

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [1] خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ [2] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ [3] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [4] عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [5] العلق

الحقيقة أنه عندما تبدأ سورة بهذه البداية "اقرأ"، ثم يتبعها الحديث عن التفكر في آية خلق الإنسان.، لا شك أن وراء ذلك أكثر من مقصد قرآني، وكل المقاصد ستدور حول محور "العلم والمعرفة"، لبناء أجيال تتحمل مسئولية الشهادة على الناس.

إن القرآن لم يأت لإعداد القلوب إعدادا إيمانيا ونفسيا فقط، وإنما جاء لبناء قلوب تقيم "الخيرية" التي يستحيل أن تتحقق بمعزل عن التواصل المعرفي مع كافة الحضارات المعاصرة. فأين هي هذه القلوب، ولماذا فقدت خيريتها، وشهادتها على الناس؟!

لقد جاء الأمر بالتدبر للناس كافة، وليس لفئة معينة، لذلك كانت مهمة علماء المسلمين العمل على تعليم الناس كيف يتدبرون القرآن، أي نقل خبرة وآليات التدبر إليهم، وليس نقل تأويلاتهم وتفسيراتهم للقرآن!! فالقرآن "آية" تتحرك فاعليتها عبر العصور، وتحتاج لتفعيلها إلى خبرات علماء العصر، وليس لعلماء عصور مضت.

إن العلماء لا يجب أن يكونوا وسطاء بين كلام الله وفهم الناس له، فقد أخبر الله تعالى أنه قد يسر القرآن للذكر، ولكن بشرط: أن يكون الإنسان "مدكرا"، أي بشرط أن يُعمل آليات التدبر والتفكر والتعقل..، ويكون على علم باللسان الذي أنزل به القرآن.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [17] القمر. وتدبر أيضا الآيات [22،32،40] من نفس السورة.

إن مراجع تفسير القرآن، على مستوى الفرق والمذاهب المختلفة، لا حصر لها.. فهل يسمح علماء التفسير لعامة المسلمين بفهم القرآن من خلال هذه المراجع، أم أنهم يشترطون وجودهم كوسطاء، لا يفهم القرآن، ولا كتب التفسير، إلا عن طريقهم؟!!!

إن المسلمين ليسوا في حاجة إلى تفسير لألفاظ القرآن، بقدر ما هم في أشد الحاجة إلى تعلم كيف يتدبرون القرآن ويدرسون آياته، فيكونون طلاب علم أمام كلام الله تعالى.

إنه ليس في الإسلام مهنة أو مدرسة متخصصة في تفسير القرآن، وإنما القرآن نفسه هو المدرسة، التي من شروط الالتحاق بها أن يملك الإنسان أولا، وقبل اللسان العربي..، قلبا حيا يحمل آليات عمل فعالة، فيتخرج منها الربانيون كل حسب تخصصه العلمي أو المهني.

آلية التفكر:

تعمل آلية التفكر للتوصل إلى الحقائق الكبرى، ما يتطلب إثارة التساؤلات التي تدفع الإنسان نحو مزيد من التأمل، وإلى الوقوف مع النفس وقفة تقييم وتحليل لمعرفة إلى أين المسير. ولقد استخدمها السياق القرآني في سياقات مختلفة، منها:

1. العلم بأسرار وسنن آيات الآفاق والأنفس، كمدخل للعبادة الحقة.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ [190] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [191] آل عمران

إن التفكر والنظر في آيات الآفاق والأنفس، يزيد الناظر بصيرة بمنافعها.

لذلك لفت القرآن نظر الناس إلى أن الزواج "آية" من آيات الأنفس، يجب أن يتعاملوا معها عن طريق "آلية التفكر" لاتخاذ القرار المناسب، لاختيار الزوج الذي يحقق للسكن الزوجي المودة والرحمة.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [21] الروم

2. العمليات التي تحتاج إلى دقة ونظر عميق يؤدي إلى التحليل والاستنباط والاستنتاج.

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ [68] ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [69] النحل

3. دراسة وتحليل الأحداث والقصص..، لأخذ العبرة.

إن في قصص السابقين موعظة وعبرة..، وفي ضرب الأمثال للواقع المشاهد، أثر عظيم في إيقاظ النفوس من غفلتها، ولتقريب المعاني الغيبية للتفكير فيها.

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ [175] وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [176] الأعراف

4. التمييز بين النفع والضر، وإدراك أن إصلاح أمور الناس لا يقوم إلا على ما ينفعهم، وفي ذلك تذكير ضمني بمصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة.

يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ [219] البقرة

إن عدم استواء الأعمى والبصير، والظلمات والنور، أمر بدهي لا يسع الناس إلا الاعتراف به، فكيف لا يأخذ الإنسان قراره الواضح والصريح مع أي الفريقين يكون؟

وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ [19] وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ [20] وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ [21] وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ [22] فاطر

لقد استوى أولو الألباب، أصحاب القلوب السليمة، التي لم تغيب آليات عملها، في الوقوف على دلائل الوحدانية، وأن هذا الكون لم يخلق باطلا..، وكان الطريق إلى ذلك هو تفعيل "آلية التفكر".

5. إظهار الحقائق والمسلمات، التي لا جدال فيها:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [43] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [44] النحل

ففي سياق الرد على شبهات الكافرين، يجيب الله على شبهة إرسال الرسل رجالا ويبين أن سنة الله في رسله أن يكونوا رجالا، وعلى المكذبين أن يسألوا أهل الذكر:

هل أرسل الله للناس رسلا على هيئة ملائكة، أم على هيئة بشر؟!

إذن فالقضية المثارة، والتي تحتاج إلى تفعيل "آلية التفكر"، هي الرد على شبهات المكذبين لدعوة الرسول الخاتم، عليه السلام، وكشف حقيقة أمرهم.

فتدبر كيف أورد القرآن مهمة البيان النبوي في نفس السورة، وفي نفس السياق:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [38]

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ [39] النحل

ثم تدبر قوله تعالى في الآية [64]:

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [64] النحل

تدبر العلاقة بين قوله تعالى: "وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" [الآية44]، وقوله تعالى: "لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" [الآية 64] وكيف أن التفكر يقود إلى الإيمان الحق.

وقوله تعالى: "لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ"، أي للناس الذين جاء ذكر خبرهم وقضيتهم في سياق الآيات السابقة، وليس للمسلمين المؤمنين الموحدين. وذلك على خلاف ما يتناوله علماء الفرق والمذاهب المختلفة من فهم خاطئ للآية لخدمة توجهاتهم المذهبية.

ودليل ذلك هو قوله تعالى بعدها: "مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ"، الذي يقتضي أن اسم الموصول [ما] وصلته [نزل] غير الذكر المنزل، المتقدم في قوله تعالى: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ"، إذ لو كانا شيئا واحدا لاقتضى ظاهر السياق أن يكون: "لتبينه للناس"، وليس "لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ".

والمعنى: أن هذا القرآن، الذكر الحكيم، أظهر للناس حقيقة ما نُزّل في الكتب السابقة، وبطلان ادعاءات المكذبين.

آلية التعقل: قد استخدمها السياق القرآني في سياقات مختلفة، منها:

1. عدم الغفلة والاضطراب والتناقض مع النفس.

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ [44] البقرة

2. تحصيل العلم عن طريق المشاهدة والقياس..، للاستدلال على معرفة إيمانية منطقية، كقدرة الله تعالى على البعث.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ [72] فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [73] البقرة

3. الوقوف على هداية القرآن والالتفات إلى حججه وبراهينه

لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ [10] الأنبياء

4. لبيان أن الله تعالى لا يكلف إلا بما يُطاق، فجاء كتابه الخاتم بلسان عربي مبين فتحمّل العرب بذلك مسئولية الشهادة على العالمين.

حم [1] وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ [2] إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [3] الزخرف

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [44] فصلت

آلية النظر: ولقد استخدمها السياق القرآني في سياقات مختلفة، منها:

1. الوصول إلى العبرة والموعظة عن طريق الدليل المشاهد.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [137] آل عمران

لقد أهلك الله القوم المكذبين، كعاد وثمود، وترك آثارهم ليشاهدها الناس في أسفارهم ذلك أن للمعاينة أثرها الفعال في الاعتبار وتقبل الموعظة، وفي الوقوف على أسباب صلاح الأمم وفسادها.

2. النظر العقلي في الآيات الكونية.

وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [99] الأنعام

فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [50] الروم

3. تحصيل المعرفة على أساس الدليل والبينة.

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْكَاذِبِينَ [27]

اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ [28] النمل

قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ [33]

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ [34] وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ [35] النمل

إن موضوع أعمال "القلب"، وآليات عمل "الفؤاد"، تكتب فيه المجلدات، وما سبقت الإشارة إليه هو مجرد تعريف بهذا الموضوع للوقوف على أهمية القلب والفؤاد في حياة الإنسان، آملا أن أفرد لهذا الموضوع دراسة مستقلة.

لقد كرم الله تعالى الإنسان، وجعله خليفة في هذه الأرض، وبيّن أن مهمة خلافته لا يمكن أن تحققه على خير وجه، إلا إذا وقف على العلاقة بين "القلب" و"الفؤاد" كآية من آيات الأنفس، الأمر الذي لا يمكن تحققه بمعزل عن قراءة جديدة لآيات الذكر الحكيم تشارك فيها كافة التخصصات العلمية، وتقوم على المنهج العلمي في الاستدلال استجابة لقوله تعالى:

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [33] الأعراف

2. اللسان العربي المبين

لقد تعَلّمَ آدم، عليه السلام، الأسماء كلها، ليقوم وذريته بالخلافة في الأرض على خير وجه:

وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [31] البقرة

فلا علم من غير تعلم، ولا تعلم من غير أن تكون للأشياء أسماء تدل عليها ولا يمكن للإنسان التعبير عن هذه المسميات إلا إذا كانت لها صور ذهنية في قلبه. لذلك عجز الملائكة عن معرفة أسماء لم تتكون عندهم صور ذهنية لها.

قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [32] البقرة

ولقد تواصلت ذرية آدم، وعلم الآباء الأبناء، وتعارفت الشعوب والقبائل، من خلال تفاعل الألسن المختلفة. ولقد جعل الله تعالى هذا التفاعل اللساني آية من آياته الكونية:

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ [22] الروم

فإذا نظرنا إلى المصدر الذي يتعلم الإنسان منه لسان قومه، وجدناه يتعلم من والديه ومن بيئته، ومن مدرسته..، فإذا به يقرأ ويكتب كما تعلم.

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [1] خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ [2] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ [3] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [4] عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [5] العلق

انظر إلى سرعة استجابة الأطفال لتعليم الوالدين، ألم تلاحظ أن الطفل يتحدث ويُعبر عما بداخله، بجمل مفيدة، يدهش لها الحضور، وذلك من قبل أن يلتحق بالتعليم المدرسي؟!

لقد خلق الله الإنسان بإمكانات تجعله قادرا على وضع الأسماء، والعلامات والرموز كوسيلة للتخاطب والتفاهم وتدوين العلوم.

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [78] النحل

ولقد أنعم الله تعالى على الإنسان بنعمة "البيان"، للتعبير عما في قلبه من أفكار ومشاعر، وأن ينقل ذلك إلى الآخرين:

الرَّحْمَنُ [1] عَلَّمَ الْقُرْآنَ [2] خَلَقَ الإِنسَانَ [3] عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [4] الرحمن

لقد جاءت ولادة اللسان مع ولادة الإنسان، ونزلت الرسالات الإلهية تخاطب كل رسول بلسان قومه:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [4] إبراهيم

إننا يستحيل أن نفهم كتابا لمؤلف من غير أن نتعلم اللسان الذي كُتب به. فإذا قرأنا ترجمة له، فإنها ستنقل لنا معاني كلمات الكتاب فقط، لا فكر الكاتب وأبعاده المختلفة. فإذا كان موضوع الكتاب يتعلق بشريعة إلهية، إذن فلا مفر من أن نتعلم اللسان الذي نزل به الكتاب كي يكون قرار اتباعه نابعا من مسئوليتنا الذاتية.

فكيف إذا كان هذا اللسان هو الأصل الذي قامت عليه "الآية القرآنية"، التي جعلها الله تعالى حجة على العالمين إلى يوم الدين؟!

لقد نزلت الرسالة الخاتمة بلسان عربي مبين، لسان أهل الجزيرة العربية، هذا اللسان الذي خرجت منه منظومة كلمات "الآية القرآنية".

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ [192] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ [193] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ [194] بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [195] الشعراء

لقد فهم العرب كلمات القرآن، لسابق تعلمهم اللسان العربي الذي نزل به فأسلم من أسلم على علمٍ، وتعقلٍ، وتدبرٍ لمضمون آياته:

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ [1] إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [2] يوسف

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءأعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ [44] فصلت

فهل يمكن أن يُفهم القرآن، وأن يصل عطاء آياته إلى قلوب الناس، وأن تتشرب قلوبهم تقوى الله تعالى، وأن يلتزموا بشريعته، دون تعلم هذا اللسان العربي المبين؟! وهل تعلم أن اللسان العربي هو أكمل الألسنة، وأغناها عطاءً ومقاماً، لذلك شاءت حكمة الله أن تنزل به "الآية القرآنية" متجددة العطاء إلى يوم الدين؟!

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [27]

قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [28] الزمر

لقد كان المخاطبون بالقرآن أهل فصاحة ولسان عربي، ومع ذلك لم يستطع المكذبون منهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولكن عدم استطاعتهم هذه لم تخرج آياته عن كونها في متناول فهم كل ذي قلب سليم، تعلم اللسان العربي، فمن لطف الله ورحمته أنه لا يكلف إلا بما يطاق، وبما يفهم، فتدبر:

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً [97] مريم

كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [3] فصلت

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [17] القمر

نعم.. "فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ"..؟!

فالإشكالية ليست في فهم آيات الذكر الحكيم، وإنما في هجر الناس لها، وعدم تفعيلها في واقع حياتهم.

إن الإنسان الذي عطل آليات عمل قلبه، لا يعرف كيف يتعامل مع القرآن كآية معاصرة له، لذلك لن تنفع معه تذكرة، ولا ما يحدث حوله من سنن كونية.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [37] ق

وإذا كان اللسان العربي هو مفتاح الدخول لفهم كلمات القرآن، إلا أنه ليس وحده الأداة الوحيدة الحاكمة على فهم القرآن، والموصلة إلى تفعيل آياته، واستلهام عطاءاته فهناك أدوات أخرى، مرتبطة به، ولا تقل أهمية عنه، بل بدونها يفقد القرآن فاعلية آياته ومن هذه الأدوات السياق القرآني.

إن السياق القرآني، هو البناء المحكم للكلمة القرآنية في سياق الآية، ودور الآيات في بناء السورة، ودور السورة في بناء القرآن كله، وما يحمله من تناغم وتفاعل مع آيات الآفاق والأنفس..، ثم كيف تربط آليات التفكر والتعقل والتدبر والنظر..، آليات عمل القلب، كل هذا لاستنباط الفقه القرآني المعاصر، الأمر الذي لا تستطيع آلة اللسان وحدها أن تقوم مقامه.

لذلك كان من الخطأ أن نتعامل مع النص القرآني بمعزل عن سياقه الخاص والعام وعن قدرته الذاتية على العطاء المتجدد، المتطور، المكنون والمدخر للناس على مر العصور، وإلى يوم الدين.

أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [51] العنكبوت

3. السياق القرآني

إن ما توصلت إليه من أدوات لفهم القرآن، والذي هو موضوع هذا الفصل هو في حقيقة الأمر صمام الأمن والأمان الذي يحمي النص القرآني من أن يُنتزع من نسيجه المحكم ومن أن تُقطّع أوصاله ووحدته الموضوعية حسب توجهات المذاهب المختلفة.

إن كثيراً من كلمات اللسان العربي تأتي بأكثر من معنى، وإن الذي يحدد معنى الكلمة هو سياق الجملة الذي وردت فيه. كما أن هناك كلمات إذا وضعت في سياق جملة لا تفيد معناها الأصلي، وإنما المعنى الذي اصطلح الناس عليه.

فمثلا، كلمة "أسْوَد" تعني اللون المعروف للناس كافة، والإنسان الذي لم يشاهد هذا اللون على حقيقته لن يستطيع تصوره في ذهنه. فإذا وُضعت هذه الكلمة في سياق جملة فإن الصورة الذهنية التي ستنطبع في الذهن عن معنى الكلمة، تتوقف على ماذا يحمل سياق الجملة من معان تعارف عليها الناس.

فإذا كانت الجملة مثلا هي: "عندما ترى الراية المرفوعة على الشاطئ سوداء، فلا تنزل إلى الماء"، فهذا يعني تحذيرا، وهذا التحذير لا علاقة له أصلا بذات اللون الأسود وإنما بما اصطلح الناس على معناه في هذا السياق، وأن وجود راية سوداء يعني شيئا عظيما حدث.

فإذا جئنا إلى الكلمة القرآنية، والآيات ذات الألفاظ المشتركة، وجدنا أن الذي يحدد المعنى هو اللسان العربي المبين، وذلك في إطار السياق القرآني ومحكوما به، بعيدا عن أية خلفية ذهنية تعارف عليها الناس تتعارض مع اللسان والسياق. فالكلمة تفهم في سياق الآية، والآية تفهم في سياق ما قبلها وما بعدها من آيات، والسورة تفهم في سياق سور القرآن وبنائها المحكم.

إن آيات الذكر الحكيم هي كلام الله الذي يدور مدار الحق المطلق، أما فهم الناس لهذه الآيات فيرتبط بإمكاناتهم الإيمانية والمعرفية.

ولقد كان لتقديس الموروث الديني، ولما اصطلح علماء المذاهب على تسميته بعلوم القرآن، دور رئيس في إبعادهم عن الفهم الصحيح لآيات الذكر الحكيم، في الوقت الذي تشهد فيه الآيات باستغنائها عن كل هذه العلوم المذهبية، فقد أحكم الله تعالى آياته وتعهد بحفظها إلى يوم الدين.

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [1] أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ [2] هود

فهل يعقل أن يكون القرآن كتاب هداية، وآية قائمة بين الناس إلى يوم الدين..، ثم يسند الله تعالى عملية فهم آياته، إلى أئمة الفرق والمذاهب المختلفة، كل حسب مدرسته في الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، والمطلق والمقيد والتفسير بالمأثور وغير ذلك من علوم ما أنزل الله بها من سلطان؟!

لقد جعل المسلمون تراثهم الديني المذهبي حاكما على فهم كلام الله، وكلام الله يعلو ولا يُعلى عليه، فكيف يكون التراث، الذي هو محل خلاف وصراع ونزاع بين علماء السلف والخلف، حاكما على عطاء "الآية القرآنية" المتجدد على مر العصور؟!! هل يمكن أن تعطي "الآية القرآنية" عطاءها وقلوب المعاصرين لها، تعمل بأدوات وإمكانات عصور مضت؟!

لقد أمر الله تعالى المسلمين أن يقفوا خاشعين منصتين متدبرين لآيات الذكر الحكيم فهل اشترط لتحقق ذلك أن يكونوا من علماء التفسير، على دراية بعلوم القرآن، حتى يفهموا آياته، فينالوا رحمة الله؟!

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [204] الأعراف

لقد فهم معظم علماء المسلمين آيات الذكر الحكيم من خلال تراثهم الديني العالق بأذهانهم، حسب المذهب الذي نشئوا فيه وتربوا على مائدته!! ولقد بيّن الله تعالى في كتابه الحكيم أن مفتاح فهم القرآن ليس موجودا في تراث الآباء، وإنما في تفعيل آليات التفكر والتعقل والنظر..، التي محلها القلب.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [97] البقرة

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [24] محمد

لقد ربط الله تعالى فاعلية "الآية القرآنية" بآليات عمل القلب، لأنه مستودع المعارف المتجددة والمتطورة، ولتكون هي الحاكمة على هذه المعارف على مر العصور.

فلماذا هجر المسلمون القرآن كـ "آية"، وتعاملوا معه كنص عربي، يُدرس في المؤسسات الدينية، في إطار فهم علماء السلف له، ويحظر على غيرهم التعامل معه إلا بشروطهم المذهبية؟!

لقد أوقع علماء السلف أنفسهم في إشكاليات كبيرة عندما جعلوا مذاهبهم العقدية حاكمة على فهمهم للسياق القرآني، مما أسفر عن ثقافة دينية مغلوطة كانت سببا في تفكيك السياق القرآني، وهدم بنيته المحكمة، وإبعاده عن مقاصده العليا، واتباع ما تشابه منه ابتغاء الفتنة. وهل بعد خوضهم في ذات الله وخلافهم حول "يد الله"، و"وجه الله" و"كلام الله"..، من فتنة كبرى؟!

لقد جاء السياق القرآني بهذه الكلمات، التي توحي في ظاهرها بالتجسيم، في إطار الآيات المتشابهات الواجب فهمها في إطار المحكمات.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ [7] آل عمران

فلماذا جعل علماء المسلمين الآيات المتشابهات حاكمة على فهمهم للمحكمات في الوقت الذي يدعوهم الله تعالى إلى إقامة فهمهم القرآني على أساس الآيات المحكمات كمنطلق أساس للوقوف عند حدود ظاهر الكلمة المتشابه، وعدم الخوض فيما لم يأذن الله تعالى به.

لقد تعامل كثير من علماء المسلمين مع كتاب الله ككتاب من كتب تراثهم المذهبي ولم يتعاملوا معه كـ "آية قرآنية" معاصرة لهم اليوم، تدعوهم إلى اتباع المحكم وإقامة ملة التوحيد على أساسه، فهل تدبروا هذه الآية المحكمة:

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنْ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ [11] الشورى

فهل تدبر علماء "العقيدة" قوله تعالى "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" وفهموا معناه؟!

إنهم لو فعلوا، ما احتاجوا بعدها لقراءة سطر واحد مما كُتب في مئات الكتب عن موضوع الذات والأسماء والصفات!! فهل يعقل أن يكون القرآن بيانا للناس كافة وتبيانا لكل شيء، ثم لا يفهم إلا عن طريق هذا التراث الديني، الذي سودت صفحاته بالحديث عما لا يليق بذات الله تعالى؟!

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [89] النحل

لقد جاء علم السياق القرآني ليجيب على سؤال طالما شغل بال كثير من الناس: لماذا اختارا الله تعالى اللسان العربي لتنزل به رسالته الخاتمة؟!!

لقد جاء علم السياق القرآني ليبين للناس أن "الآية القرآنية"، التي هي حجة الله القائمة بينهم إلى يوم الدين، ليست نصاً عربياً فقط، وإلا لاستطاع المكذبون أن يأتوا بمثله!! لقد تفاعل اللسان العربي داخل منظومة السياق القرآني فأنتج "آية قرآنية" ممتدة المفعول والعطاء، فإذا حملها القلب أنعمت عليه بالحكمة وفصل الخطاب.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً [39] الإسراء

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً [1] الفرقان

إن عطاء "الآية القرآنية"، المعاصر لنا اليوم، ليس هو التفسير الموجود في أمهات كتب التفسير، باختلاف توجهاتها المذهبية، والتي قامت على علوم ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما هو "فقه قرآني معاصر"، يقوم على إمكانات وأدوات علماء العصر بتخصصاتهم المختلفة، بعيدا عن حالة الجمود التي تشهدها معظم أمهات كتب التفسير التي تكاد أن تكون في مجموعها نسخة طبق الأصل، مع اختلاف يسير في الأسلوب!!

ولكن الأخطر من ذلك أن يقيم أصحاب هذه الكتب تفسيرهم للقرآن على أساس نسخ آياته، وتقييد أحكامه، وافتراء عقوبات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان فأظهروا القرآن الذي أحكمت آياته، بصورة محرفة، ليس لها واقع يؤيدها بين دفتي المصحف. وسأضرب بعض الأمثلة لبيان كيف تم تعطيل أحكام الشريعة القرآنية بهذه العلوم.

المثال الأول: قضية النسخ

يعتقد معظم المسلمين، نقلا عن علماء مذاهبهم المختلفة، أن في القرآن "ناسخ ومنسوخ"، أي أن الله تعالى بعد أن يُنزل السورة، أو بعضها، ويدوّنها النبي عليه السلام في الصحف، يأتي فيلغي هذه السورة، أو هذا البعض، ويأتي بآيات أخرى. بل ويمكن للنبي أن يقوم أيضا بهذه المهمة، فينسخ ما شاء من الآيات ويثبت ما شاء عن طريق أحاديثه النبوية!!

ويستدل علماء المذاهب المختلفة على قضية "الناسخ والمنسوخ" بآيات من الذكر الحكيم، على رأسها قول الله تعالى:

مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [106] البقرة

يقول شيخ المفسرين، الإمام الطبري، في تفسيره لهذه الآية:

"يعني جل ثناؤه بقوله: [ما ننسخ من آية]: ما ننقل من حكم آية، إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يحول الحلال حراما، والحرام حلالا، والمباح محظورا والمحظور مباحا. ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ". اهـ

تدبر هذا الكلام الخطير، الذي يجعل القرآن وأحكامه، محل تبديل وتحريف!! فإذا ذهبت لتقف على المصدر الذي جاء بهذه القضية المفتراة على كتاب الله، وجدته مرويات نسبها الرواة إلى رسول الله، وكانت محل تصحيح وتضعيف، منذ عصر التدوين وإلى يومنا هذا!! فهل يعقل أن يكون المصدر الناسخ لآيات الذكر الحكيم أقل منزلة من المنسوخ؟! هل يعقل أن يكون المصدر الناسخ روايات بشرية مذهبية، قد آتاها الباطل، وإن صحت عند علماء فرقة لم تصح عند آخرين؟!

تعالوا نتدبر السياق القرآني الذي وردت فيه هذه الآية، لنقف على حقيقة هذا النسخ ولنعلم أن هجر المسلمين لـ "الآية القرآنية" وجعل تراثهم المذهبي حاكما على فهم نصوصها، أوقعهم في إشكاليات كانت سببا في تفرقهم وتخاصمهم وتقاتلهم!!

لقد سبق "آية النسخ" قول الله تعالى:

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [105]

وجاء بعدها قول الله تعالى:

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ [107]

فإذا تدبرنا هذه الآيات، وجدنا أن السياق القرآني يتحدث عن أهل الكتاب الذين حسدوا المسلمين على ما آتاهم الله من فضله، بإنزاله الكتاب الخاتم عليهم وعلى أن جعل هذا الكتاب "آية قرآنية"، تحمل حجيتها في ذاتها، فتشهد بصدق من أنزلها وصدق من بلغها، لذلك جاءت مهيمنة على كل ما سبقها من آيات أي من دلائل على النبوة وكلها كانت حسية.

فالقضية لا علاقة لها أصلا بالجمل المكونة لـ "الآية القرآنية"، وإنما علاقتها بذات "الآية القرآنية" الدالة على صدق نبوة محمد، عليه السلام، والتي جاءت آية عقلية وليست حسية، فكانت محل حسد وغضب واستنكار من أهل الكتاب، وخاصة اليهود.

لذلك فإن ما وقع فيه كثير من المفسرين من خطأ، هو أنهم فسروا كلمة "آية"، التي جاءت في "آية النسخ" بأنها الجملة القرآنية، وليس العلامة الدالة على صدق النبوة!!

فإذا علمنا أن سياق الآيات [41-124] من سورة البقرة يخاطب اليهود أصلا، وقد وردت آية النسخ [106] خلال هذا السياق، وقد ختمها الله بقوله:

"أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"

أيقنّا أن معنى الآية لا علاقة له، من قريب أو من بعيد، بنسخ الجملة القرآنية بجملة قرآنية أخرى، أو نسخها بحديث، منسوب إلى النبي، عليه السلام.

إن سياق هذه الخاتمة يتحدث عن مقام العلم والقدرة الإلهية، الأمر الذي يناسبه أن يتحدث السياق عن "الآيات" باعتبارها علامات ودلائل على النبوة، والتي لا تختلف عن آيات الآفاق والأنفس وليس باعتبارها نصا قرآنيا يُنسخ ليأتي نص آخر ليحل محله.

ومثال ذلك ورود كلمة "آية" في سياق الحديث عن دلائل نبوة موسى عليه السلام:

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى [22] لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى [23] طه

إن "آية النسخ" جاءت تخاطب أهل الكتاب، وخاصة اليهود المكذبين لدعوة الرسول الخاتم محمد، عليه السلام، وليست خطابا للمسلمين، لبيان ما نسخ من أحكام شريعتهم وما لم ينسخ. أما خطاب المسلمين فقد جاء في سياق الآية التي بعدها:

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ [108]

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [109] البقرة

المثال الثاني: نسخ الأحكام

إن عدة المرأة المتوفى عنها زوجها، غير عدة المطلقة، فعدة المطلقة "ثلاثة قروء" أما عدة المرأة المتوفى عنها زوجها فجاءت فترة أطول، أربعة أشهر وعشرا، للتأكد من انتفاء الحمل تماما، وذلك لعدم وجود الزوج الذي لو فرض أن امرأته ادعت عليه نسبا يستطيع أن يثبته أو أن ينفيه.

فيقول المفسرون: إن عدة المتوفى عنها زوجها كانت حولا كاملا، تعتد في بيت زوجها، وينفق عليها من ماله، استنادا إلى قوله تعالى:

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [240] البقرة

ثم نسخ الله هذا الحكم، وأصبحت العدة أربعة أشهر وعشرة أيام استنادا إلى قول الله تعالى:

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ البقرة [234]

كما يستدلون على نسخ الحول برواية جاءت في صحيح البخاري، عن ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان: "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا" قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها؟! قال: يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه"!!!

وبصرف النظر عن مسألة ورود الآية المنسوخة بعد الآية الناسخة، حسب ترتيب الآيات في المصحف، والخلاف حول ذلك..، فإن السؤال سيبقى قائما:

ألا توحي هذه الروايات بحدوث تحريف في القرآن عند جمع عثمان بن عفان له؟

أم أن هذه المرويات باطلة أصلا؟! وإذا كانت صحيحة، فلماذا بقيت هذه الآية المنسوخة في المصحف إلى يومنا هذا، وقد شهد أحد كبار الصحابة، وهو ابن الزبير أنها مما نُسخ تلاوة وحكما، عندما اعترض على تدوين عثمان لها في المصحف؟!

وهل يكفي أن يقول عثمان، ردا على اعتراض ابن الزبير: "يا ابن أخي لا أغير شيئاً منه من مكانه"؟! هل الروايات الظنية الثبوت عن رسول الله، والتي إن صحت عند فريق لا تصح عند آخر، هي التي تحدد ما ينسخ من القرآن وما لا ينسخ؟!

الحقيقة أن الآية لم تنسخ وحكمها باق إلى يوم الدين، ونحن أمام حكمين منفصلين:

الأول: حكم الآية [240]: ويتحدث عن وصية الزوج المتوفى. فللزوج أن يوصي أن تبقى زوجه بعد عدتها في بيت الزوجية لمدّة سنة كاملة، مع النفقة عليها، ولها أن تعمل بهذه الوصية أو لا تعمل، فلها أن تخرج بعد أربعة أشهر وعشرا، وتتزوج إن شاءت وحينئذ تُقطع عنها نفقة زوجها المتوفى.

الثاني: حكم الآية [234] ويتحدث عن الفريضة، وهي أن تظل المرأة في بيت الزوجية أربعة أشهر وعشرا، وعلى أهل الزوج المتوفى السماح لها بذلك. فإذا وصى الزوج أن تتمتع زوجه لمدة حول، فلها أن تبقى في بيته بعد عدتها حتى انتهاء الحول.

إذن فلا تعارض، ولا نسخ بين الآيتين، بل ولا نسخ في القرآن مطلقا

المثال الثالث: التوظيف المذهبي للآيات القرآنية

تكشف سورة الأنفال والتوبة والحشر، عن نزاع نشب بين صحابة رسول الله حول توزيع الأنفال والفيء، فنزل القرآن يحسم الخلاف حول هذه القضية. يقول الله تعالى:

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ [5] وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [6] الحشر

والفيء هو ما حازه المسلمون من غير مشقة وكلفة من حرب. ويخصص الفيء للمصارف التالية:

مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [7] الحشر

وهي نفس المصارف التي خصص الله تعالى لها خمس الغنائم.

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [41] الأنفال

وكان للمنافقين موقف من توزيع رسول الله لهذه الأموال، فإذا رأوها توزع على غيرهم، طعنوا ولمزوا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ [58] التوبة

ثم تدبر قول الله تعالى بعدها:

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ [59] التوبة

ولا شك أن إيتاء الله هو عين إيتاء الرسول، فالله تعالى هو المشرع ورسوله هو القائم على تنفيذ ما شرعه الله تعالى بين الناس. فتدبر قوله تعالى: "وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ".

لقد نزل الوحي القرآني يوضح حكم الله في أمر توزيع الأنفال والفيء ويأمر المسلمين بالرضا بما قسمه الله لهم، والتسليم بما أعطاه الرسول لصحابته كي لا يتركز المال في أيدي فئة من أغنياء الأمة، دون الالتزام بحق ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفي سبيل الله.

فالسياق القرآني، سواء كان الخاص بسورة الأنفال، أو التوبة، أو الحشر، لا علاقة له بوجود مصدر ثان للتشريع، يحمل المرويات التي نسبها رواة الفرق والمذاهب المختلفة، ومحدثوها، إلى رسول الله، بدعوى أنها نصوص "السنة النبوية" واجبة الاتباع، كل حسب مدرسته في التصحيح والتضعيف، والجرح والتعديل.

لذلك فإن استدلال علماء هذه الفرق، بقوله تعالى: "وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"، على وجوب اتباع مصادرهم الثانية للتشريع، بدعوى أنها نصوص "السنة النبوية" واجبة الاتباع، هو استدلال غير صحيح. ذلك أن الأمر بطاعة الرسول والنهي عن معصيته يحتمل عدة وجوه:

الأول: أن يكون خاصا بمسألة توزيع مال الفيء.

الثاني: أن يكون خاصا بكل أمر أو نهي وردا في كتاب الله تعالى.

الثالث: أن يكون خاصا بكل أمر أو نهي وردا في هذه الأحاديث التي تدعى كل فرقة أنها المصدر الثاني للتشريع واجب الاتباع.

الرابع: أن يكون عاما يشمل كل لفظ تلفظ به رسول الله، عليه السلام، خلال فترة دعوته.

فالوجه الأول: هو الذي يدل عليه سياق الآية، خاصة إذا تدبرنا معها سياق آية سورة الأنفال، التي جاءت تتحدث عن نفس موضوع مصارف الغنائم ووجوب التزام صحابة رسول الله بتوزيع رسول الله لها. فتدبر قوله تعالى:

"إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ"

والمتدبر لسياق آيات سورتي الأنفال والحشر، يتبين له مدى مسئولية رسول الله عن توزيع هذه الغنائم، وهذا الفيء، بصفته القائد الأعلى للمسلمين. ولا شك أن خلافا نشب بينهم، بخصوص هذا التوزيع، فنزل الوحي القرآني يحسم هذا الخلاف، ويبين ماهيته والأطراف التي شاركت فيه. فتدبر:

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ [8]

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [9] الحشر

تدبر قول الله تعالى: "وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا".

إن الإيتاء هنا إيتاء خاص بالغنائم، وبأموال الفيء التي قام الرسول بتوزيعها ولا علاقة له بنصوص وحي ثان، كان يتنزل على رسول الله..، وإلا لاتهمنا صحابة رسول الله بأنهم كانوا يجدون في صدورهم حاجة من هذا الوحي!!

ومعنى الآية: ما كان للمسلمين أن يتكلموا أصلا في غنائم، أو فيء، وهم المهاجرون الذين تركوا وراءهم كل شيء أو هم الأنصار الذين آووا المهاجرين وأشركوهم في ديارهم وأموالهم ولم يجدوا في صدورهم حاجة مما [أوتي المهاجرون] بل وآثروهم على أنفسهم.

إن أمر الأنفال ليس حقا خالصا للمسلمين كي يتنازعوا عليه، وإنما لابد من استيفاء الخمس من الغنيمة للمصارف التي أشارت إليها سورة الأنفال، ليبقى أربعة أخماسها للجيش المقاتل.

أما الفيء فيذهب جميعه إلى ولي أمر المسلمين ليتصرف فيه حسب المصارف التي أشارت إليها الآية، وعلى المسلمين الرضا بحكم رسول الله في هذا التوزيع، فهو ولي أمرهم وقائدهم الأعلى، وزمام الأمور كلها بيديه ورؤيته لها أعم وأشمل. لذلك فإن استقطاع هذا الجزء:

"وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا"، من سياقه الخاص، والعام ووضعه في قالب مذهبي، عمل لا يُرضي الله ولا يُرضي رسوله.

إن اتخاذ كل فرقة من الفرق الإسلامية هذه الآية، قاعدة تقيم عليها حجية مروياتها المنسوبة إلى رسول الله، بدعوى أنها نصوص "السنة النبوية" التي أمر الله باتباعها عمل ليس من سنة رسول الله التي أمره ربه باتباعها.

أما عن الوجه الثاني: وأن الآية تشمل كل أمر أو نهي جاء به القرآن الحكيم، فهذا من البديهيات المسلم بها أصلا.

وعن الوجه الثالث: والخاص بشمول الآية لكل أمر أو نهي جاءت به المرويات المنسوبة إلى رسول الله، والتي ورثتها الأمة مذهبيا..، أقول:

إنه بعد وفاة رسول الله، بقرن ونصف من الزمان، دوّنت هذه المرويات في الكتب الجامعة، ومهما قال علماء الفرق عن مسألة ضبط هذه المرويات وفرزها وتنقيتها فإن الواقع المشاهد، لكل ذي بصيرة، يشهد ببطلان هذا الادعاء، إذا نظرنا إلى القضية من منظور شامل لجميع الفرق والمذاهب المختلفة.

أما إذا كانت كل فرق تنظر إلى هذه مسألة من منظورها المذهبي، وعلى أساس ما صح عندها من مرويات، وإن لم يصح عند غيرها..، فهذه مسألة تخالف المنهج العلمي الصحيح، ويرفضها المنطق السليم، فقد أصاب هذه المرويات الباطل..، مما فرض على علماء كل فرقة أن يضعوا لأنفسهم شروطا تُقبل على أساسها الرواية المنسوبة إلى رسول الله، أو تُرفض. ولا يعقل أن يقيم الله حجته على الناس وفق هوى علمائهم ومدارسهم المذهبية!!

أما عن الوجه الرابع: والخاص بشمول الآية لكل لفظ تلفظ به رسول الله في حياته فهذا أمر يتعلق بمن عاصروا رسول الله، ولا شك أن عصر الرسالة له طبيعته الخاصة التي تفرض على كل من آمن برسول الله أن يطيعه طاعة مطلقة فرسول الله أمامهم يسمعون منه مباشرة، والوحي يباشر مواقفهم ويتنزل بما يصحح أحوالهم، ويهديهم إلى صراط ربهم المستقيم..، ولو كنت معهم ما وسعني إلا طاعة رسول الله في كل ما أمر به.

إن الله لن يناله من هذه الأنفال شيء، ومع ذلك قال تعالى:

يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ [1] الأنفال

فتدبر العلاقة بين السؤال عن الأنفال، والإجابة التي شملت هذا الأمر:

"فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ"

ثم ربط تقوى الله، وإصلاح ذات البين، بقوله تعالى:

"وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ"

لتعلم أن السياق الخاص، والعام، لهذه القضية يتعلق بخلاف حدث بين صحابة رسول الله، حول توزيع هذا المال، مما استوجب أن ينزل القرآن لبيان ما يجب عليهم فعله، من تقوى الله، وإصلاح ذات البين.

إن المسلم الذي تجرد من المذهبية، وحصل على قدر من تدبر ودراسة كتاب الله تعالى، يعلم جيدا بطلان دعوى أن تكون آية سورة الحشر دليلا على حجية مرويات الفرق والمذاهب المختلفة، فآيات الذكر الحكيم، أعلى وأجل وأرفع شأنا من أن تُقطّعها كل فرقة، وتتخذها قاعدة تقيم عليها حجية مصادرها القولية الثانية للتشريع.

لقد كان مجيء الكتاب الخاتم "آية قرآنية" تأسيساً لقاعدة إيمانية، يقيم عليها الناس جميعا إسلامهم، من غير حاجة إلى نبوة، أو رسالة جديدة، وهي:

أن المسئولية الدينية مسئولية فردية، يتحملها الإنسان المعاصر للآية القرآنية، بعيدا عن مسئولية السلف، سواء كانوا صالحين أم غير ذلك.

وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً [13] اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [14] الإسراء

لقد تفرق المسلمون شيَعاً وأحزاباً، عندما جعلوا تراثهم الديني المذهبي حاكما على فهمهم للسياق القرآني، وعندما جعلوا هذا الفهم دليلا لكل فرقة منهم على أنها الفرقة النّاجية!! فأين هؤلاء من قول الله تعالى:

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [153] الأنعام

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [105] آل عمران

4. آيات الآفاق والأنفس

إنه بدون وقوف الإنسان على التفاعل والتناغم المحكم، بين الآيات القرآنية والآيات الكونية، يستحيل فهم القرآن. إن آيات الآفاق والأنفس، آيات هذه المنظومة الكونية، التي تعمل وفق قوانين محكمة، والتي تكفل لها أداء مهمتها على خير وجه والدالة على الوحدانية..، آيات حاضرة معاصرة لنا، وعلينا أن نأخذ من سننها وقوانينها ما نقيم على أساسه شهادة "ألا إله إلا الله".

إن "الآية القرآنية"، بمثابة الرسول المبلغ لرسالة الله، الذي جاء يقيم الحجة على الناس بتذكيرهم بدلائل الوحدانية المبثوثة في الآفاق والأنفس.

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [53] فصلت

إن التفكر في آيات الآفاق والأنفس لا يقل أهمية عن التفكر في آيات الذكر الحكيم فالناس لن يقفوا على دلائل الوحدانية، التي ينطق بها القرآن ليل نهار، إلا بالنظر في الكون والتفكر في آياته.

لذلك جاءت "الآية القرآنية" آية عقلية خالدة، تتناغم مع خلود آيات الآفاق والأنفس وزود الله تعالى الإنسان بآليات عمل القلب، لينظر في خلق السموات والأرض ويتفكر في هذه المنظومة المحكمة:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ [190] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [191] آل عمران

لقد عاشت البشرية زمنا طويلا تعتقد أن الشمس هي التي تدور حول الأرض، ثم تبين أن الأرض هي التي تدور حول الشمس، فهل النظام الكوني هو الذي تغير أم طرق التفكير والاستدلال العلمي؟!

لقد جاءت هذه المنظومة الكونية تصحح للإنسان خطأه، وتعلمه كيف يتعامل مع السنن والقوانين الكونية، وتبين له أن في مخالفتها إفسادا في الأرض.

إننا عندما نريد أن نقف على دلائل الوحدانية، وفاعليتها مع السنن الكونية، علينا أن نقيم ذلك على أسس علمية، فإبراهيم عليه السلام عندما خرج إلى الكون ليتعرف على ربه، أعمل فكره، وأقامه على أصول الاستدلال العلمي فعرف ربه من خلال آيات الآفاق.

إن معظم الاكتشافات التي قام عليها عصر العلم كانت مستقاة من عناصر هذه الآيات، وسنن وقوانين تسخيرها. والغريب أنه أمام هذا التطور العلمي والحضاري الهائل، الذي يشهده العالم أجمع، وهذه الثورة المعلوماتية التي جعلت العالم أجمع يعيش في قرية صغيرة..، نجد الناس يعيشون بمعزل عن النظر والتفكر في هذه المنظومة الكونية التي حملت لهم دلائل الوحدانية لتفعيلها في حياتهم، إيمانا وسلوكا علميا حضاريا.

وإن المتدبر لكتاب الله يعلم حجم المساحة التي تشغلها آياته، للفت نظر الناس إلى وجوب إيجاد علاقة من الحب والاتصال بين قلب الإنسان، وآيات الذكر الحكيم وآيات الآفاق والأنفس، هذا المثلث الإيماني الذي قامت عليه فاعلية "الآية القرآنية".

فهل يمكن لإنسان نجح في إيجاد علاقة من الحب والود مع آيات الآفاق، أن يكون سببا في إحداث تلوث بيئي فيها، أو يعمل على استنزاف مواردها؟!

وإذا نظرنا إلى آيات الأنفس، فهل يمكن لإنسان عرف قدر نفسه، وما تحمله هذه النفس من منظومة مسبحة لله تعالى دوما، أن يأخذ بها إلى التهلكة؟!!

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً [44] الإسراء

إن الآية تتحدث عن منظومة آيات الآفاق والأنفس المسبحة، وعلاقة الإنسان بها فانظر كيف يستكمل السياق القرآني المثلث الإيماني، فيربط بين الإنسان والقرآن والكون فيأتي قبلها قول الله تعالى:

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً [41] قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً [42] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً [43]

ثم تدبر قول الله تعالى بعدها:

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً [45] وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً [46] الإسراء

إن تسبيح الكون من حولنا هو في حقيقته خضوع وطاعة للسنن التي وضعها الله تعالى فيه، فتدبر:

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [38] وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [39] لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [40] يس

إن كل عضو من أعضاء جسم الإنسان يسبح بحمد ربه، فكيف يستخدمه الإنسان في معصية الله عز وجل؟! إن هذه المنظومة الكونية المسبحة، التي تحمل للإنسان دلائل الوحدانية، قد جعلها الله تعالى مرشدا وهاديا لما يجب أن يكون عليه الإنسان من سلوك قويم. تدبر العلاقة بين هذه المنظومة المسبحة وسلوك الإنسان:

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [1] يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ [2] كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ [3] الصف

إن سلوك الإنسان يجب أن يتناغم مع منظومة الكون المسبحة، وخضوعها لله تعالى، لذلك جاءت الآيات التالية تبين كيف يكون هذا السلوك الإسلامي:

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ [4]

ثم تحدث السياق بعد ذلك عن علاقة الإنسان بدعوة الرسل، إلى قوله تعالى:

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [9]

ثم جاء بعد ذلك بيان للشروط الواجب توافرها في من يريد النجاة في الآخرة:

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [11] الصف

إنّ العلاقة المتناغمة بين الكتاب والإنسان والكون، هي التي تجعل الإنسان يعيش في أمن وسلام مع نفسه ومع الكون. إن كل ذرة في جسد هذا الإنسان تسبح بحمد خالقها، ولكن الإنسان لا يفقه منطق ولسان هذه الذرات المسبحة!!

وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ [20] وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ [21] الذاريات

إن الإفساد في الكون لا يكون إلا بأيدي المفسدين، إذن فماذا ينتظر المفسدون في الأرض من السموات والأرض أن تعطيهم من كنوزها وبركاتها التي لا تنفد؟!!

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [41] الروم

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [96] الأعراف

تدبر العلاقة بين الإيمان والتقوى، وعطاء السموات والأرض لأهل القرى. إنها علاقة تناغم. لذلك فإن تقوى الله تعالى ليس مجالها فقط الجانب التعبدي في الشريعة الإسلامية ولكنها تشمل أيضا، وبصورة أشمل، جانب المعاملات وصالح الأعمال فالإسلام لا يفصل بين أصوله وقواعده التي يقوم عليها. تدبر قول الله تعالى:

الم [1] ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ [2] البقرة

إن "الآية القرآنية" التي جاءت هدى للمتقين، ليست مجرد كلمات مدونة في المصحف، تقرأ على الناس في المناسبات..، وإنما التفاعل الحي بين فطرة التوحيد وآيات الذكر الحكيم، والتناغم بينهما وبين آيات الآفاق والأنفس.

وإن المتقين هم الذين يكشفون السنن، ويأخذون العبر، فلا يقعون فيما وقع فيه السابقين. إنهم ينظرون دوما إلى عواقب الأمور، فلا يخططون إلا وفي أذهانهم المستقبل الأفضل، والعمل الصالح.

تدبر هذه الآيات من سورة الواقعة، لتقف على هذه الحقيقة:

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ [57] أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ [58] أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ [59] نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ [60] عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ [61] وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ [62]

فهل يمكن مساواة ما يبذله الإنسان من جهد كي يصل ماؤه إلى ماء زوجه فيحدث الحمل، بما يحدث بعد ذلك من عمليات ومراحل خلق الجنين إلى أن يخرج إلى الحياة الدنيا بشرا سويا؟!

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ [63] أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ [64] لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلَلْتُمْ تَتَفَكَّهُونَ [65] إِنَّا لَمُغْرَمُونَ [66] بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ [67]

وهل يمكن مساواة ما يبذله الفلاح من جهد لزراعة أرضه..، بما يحدث بعد ذلك من استجابة البذور للأمر الإلهي الموجود بداخلها، لتقوم بالعمليات الدقيقة التي تعجز المصانع مجتمعة عن القيام بها، لتخرج الثمار مختلفة الأُكل والألوان؟!

أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ [68] أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ [69] لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ [70]

وهكذا الحال بالنسبة لفاعلية السنن الكونية، ودورها في استكمال ما يقوم به الإنسان من أسباب، ليحقق مهمة استخلافه في الأرض على خير وجه.

أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ [71] أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ [72] نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ [73]

لذلك كان من الضروري أن تختم هذه المنظومة الكونية بقوله تعالى:

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ [74] الواقعة

5. منظومة التواصل المعرفي

لقد خاطب الله تعالى الناس برسالات تفاعلت كلماتها وتواصلت مع ما ورثوه من معارف وثقافات وكيفيات أداء عملية للمهن والحرف والصناعات والعبادات ولقد كان للوحي الإلهي دور رئيس في تعلم وحفظ كثير من هذه المعارف. ولا شك أنه مع التقدم الحضاري، واتساع قاموس المعارف، مع اتساع حركة العمران البشري وتفعيل آليات التفكر والتعقل، والنظر..، آليات عمل القلب يقوم الإنسان بدوره في تطوير وتحديث ما أبدعه السابقون، بما يحقق مهمة استخلافه في الأرض وعمارتها على أحسن حال، وفق إمكانات ومقتضيات وتحديات كل عصر.

ولقد جاءت الرسالة الخاتمة، "آية قرآنية" عالمية خالدة، لتصحح الأفكار والعقائد وترد الناس إلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها، وتأمرهم بتفعيل آليات عمل القلب، للوقوف على دلائل الوحدانية، الموصلة إلى التوحيد الخالص لله عز وجل.

لقد جاءت "الآية القرآنية" لترسي قواعد الأخلاق التي يجب أن تحكم مسيرة الإبداع الحضاري وتطوره وكل ذلك من خلال منظومة من العلوم والمعارف المتواصلة على مر العصور.

ولقد اتخذت لهذه المنظومة المعرفية اسما هو "منظومة التواصل المعرفي".

فـ "منظومة التواصل المعرفي" هي تلك المعارف، التي تواصلت حلقاتها حاملة معها الأسماء، والأفعال، والأفكار، والخبرات، والمشاعر...، من لدن آدم، عليه السلام، والتي لولاها ما نشأت العلاقات الإنسانية، وما تطورت العلوم، وما فهم الناس كيفيات الأداء العملي للمهن، والحرف..، وما أجملته الرسالات الإلهية من أحكام.

وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [31] قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ [32] البقرة

لقد حملت "منظومة التواصل المعرفي" النور الذي اهتدت به البشرية جمعاء عبر مسيرتها الحضارية. فالإنسان لم يتعلم العلوم إلا من خلال هذا التواصل المعرفي، ولم يسم الأشياء إلا بعد أن شاهدها وتعرف عليها.

والطفل يتعلم معاني الأسماء ممن حوله، من قبل أن يتعلمها من الكتاب المدرسي ويعرف الشمس من الواقع المشاهد، قبل أن يرى صورتها في الكتاب، ويمارس الصلاة محاكاة وتقليدا لوالديه، من قبل أن يتعلمها في المدرسة، ولن يعرف الكعبة بيت الله الحرام، مهما تخيلها، أو وصفت له، إلا إذا شاهدها بنفسه.

ولا شك أن البيئة التي يولد فيها الإنسان، سواء كانت الأسرة أو المدرسة أو المجتمع تقوم بدور رئيس في تحصيله هذه المعارف.

لقد تعلم الإنسان كيف يدفن الموتى بمواراة الجسد في باطن الأرض، ثم تواصلت هذه الكيفية عبر هذه المنظومة المعرفية، تدبر قول الله تعالى في سورة المائدة.

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنْ النَّادِمِينَ [31]

وتعلم نوح، عليه السلام، صناعة الفلك، بوحي من الله تعالى، ثم تواصلت هذه الصناعة بين الناس عبر هذه المنظومة المعرفية.

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ [27] المؤمنون

وتعلم الإنسان كيف يصنع دروع القتال، ثم تواصلت هذه الكيفية بين الناس وتطورت حسب إمكانات كل عصر.

فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ [79] وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ [80] الأنبياء

وتنقسم المعارف، التي حملتها "منظومة التواصل المعرفي" إلى:

معارف عالمية: وهي المعارف التي تتواصل حلقاتها، ومدلولات كلماتها بين شعوب العالم أجمع، والتي تعبر عن صفات ثابتة مهما اختلفت لغاتها ولهجاتها.

ومن هذه المعارف "الكلمات": أبيض . ساخن . حزين . تفاحة . كرسي . سحاب . شجرة . بحر . كلب . شمس... إلى آخره. وكذلك "الأفعال": يأكل . يمشي . يضرب . يذبح . يرمي . يقوم . يركع . يسجد... إلى آخره.

معارف أممية: وهي المعارف التي تتواصل حلقاتها، ومدلولات كلماتها بين أفراد الأمة الواحدة، مثل: اللسان . كيفية أداء العبادات . العادات والتقاليد . المهارات الفنية والصناعات، التي تتميز بها أمة عن أخرى.

إن الأرض تنبت زرعا قبل أن يعرف الإنسان الزراعة، بل هي التي علمته كيف يزرع، وأصبحت علوم الزراعة تشكل منظومة معرفية عالمية، وإذا وجدنا شيئا لا نعرف له اسما فإن ذلك بسبب عدم تواصل حلقات معرفته بعصرنا، لذلك نلجأ إلى من عنده هذه المعرفة فنأخذها منه، أو نسميه نحن فيكون معرفة جديدة.

ووسط هذه المنظومة المعرفية تخرج الرسالات الإلهية لتضبط توازن هذه المعارف وتمدها بحيويتها، وبخلاصة التجارب الإنسانية على مر العصور.

لقد ارتبطت المعارف بسلم التطور الحضاري حاملة معها مضامين ذات غايات تعليمية عملية، كمبادئ الزراعة والحرف المختلفة، وأخرى ذات غايات تعليمية فكرية وتشمل علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بالإنسان.

لذلك جاءت الرسالات الإلهية تدعو الناس إلى النظر في حاضرهم ومستقبلهم، وأن يرتفعوا بأنفسهم إلى قمة الحضارة، بالتفاعل الجاد مع هذه المنظومة المعرفية، وفق مقتضيات العصر وتحدياته.

ولقد نزل القرآن الكريم باسمه، ونصه، وموضوعه، وأصبح هذا الاسم معروفا لكافة المسلمين، ولغير المسلمين، على أنه الكتاب الإلهي الواجب على المسلمين كافة اتباعه فالقرآن يشكل باسمه ونصه وموضوعه منظومة معرفية عالمية وأممية.

فإذا جئنا إلى أمهات الكتب الدينية، التي يدعي أصحابها أنها قد حملت مصدرا ثانيا للتشريع واجب الاتباع، وجدنا أن الذي وضع أسماءها هم أصحابها الذين ألّفُوها ودوّنوها بأيدهم!!

ولكن من إشكاليات هذه المنظومة المعرفية، التي ساهم في تدعيمها الناس أنفسهم اختلاط الحقائق الدينية بالمعارف التاريخية، والمقدس بغير المقدس والخيال بالحقيقة.

لقد شاء الله تعالى أن تكون النبوة صمام الأمان الذي يحفظ للناس دينهم، بعيدا عن دائرة تراثهم الديني، واختلافاتهم المذهبية. فإن ما يرثه الأبناء على أنه حق، قد يكون في أصله باطلا، فتأتي الرسالة الإلهية لتبين للناس الحق وتكشف لهم الباطل.

لقد حرف أهل الكتب السابقة كتبهم، وأدخلوا فيها العقائد الباطلة، والمرويات المزيفة والأساطير والخرافات التي نسبها الرواة إلى أنبيائهم، وتداولتها المجامع بعد ذلك ودونتها في المدونات، ونشرتها كدين مقدس واجب الاتباع، حملته هذه المنظومة المعرفية، ومن ذلك قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ [116] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [117] المائدة

تدبر قول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: "وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ"، ثم قوله بعدها: "فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ".

فإذا نظرنا إلى مسألة صلب عيسى عليه السلام وجدناها كانت تشكل في عصر الرسالة منظومة معرفية عند النصارى، يصعب عليهم إنكار صحتها، ومع ذلك جاء القرآن يثبت بطلان هذه المعرفة المتواصلة، والتي يعتبرها أصحابها من حقائق الدين واجب الاتباع.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً [157] النساء

تدبر قوله تعالى: "مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ"، لتعلم أن المعارف الباطلة غالبا ما تقوم على اتباع الظن الذي هو القاعدة التي قام عليها تراث الأمم الديني، ولو أجمع الناس جميعا عليه.

إن الإجماع على شيء لا يعطيه حجة في دين الله إلا إذا قام على شريعة إلهية قطعية الثبوت عن الله تعالى. ولما كانت هذه المنظومة المعرفية قد حملت الحق والباطل، كان من الضروري أن ينظر الإنسان إلى تدينه الوراثي بعين البصيرة ليرى ما إذا كان يتبع "الدين الإلهي" الحق، أم "التدين الموروث" الباطل، فقد اعتاد الناس تحريف رسالات الرسل، واتخاذ هذا التحريف دينا جديدا، يتوارثونه عبر تراث مذاهبهم الدينية المختلفة.

إن تكذيب المسلمين لخبر قتل المسيح، عليه السلام، وصلبه، قام على إخبار الله تعالى لهم بذلك، وخبر الله بالنسبة للمسلمين أكثر صدقا وحجية من معاينة الناس للحدث نفسه. فالذين استدلوا على قتل المسيح وصلبه، بتواتر هذا الخبر، أقاموا ذلك على واقع مشاهد، وهو استفاضة الخبر والإجماع عليه بينهم، على مر العصور.

وبصرف النظر عن الخلاف حول رواة هذا الخبر، وهل كانوا أربعة أم سبعة، لأن هذا العدد بالنسبة للتحقيق العملي ما هو إلا مجرد خبر يحتمل الصدق أو الكذب!!

فإذا جئنا نُحكّم القرآن في مصداقية هذا الخبر، فإن الأمر سيختلف تماما، ويصبح هذا الخبر باطلا ولو أجمع عليه الناس جميعا!!

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً [157] بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً [158] النساء

إن "منظومة التواصل المعرفي" محور أساس من المحاور التي قامت عليها هذه الدراسة، وقد يشكل فهم بعض مسائلها لحداثتها، لذلك كان لابد أن أبسط القول فيها بشيء من التفصيل في مبحثين رئيسين:

الأول: عن حجية التواصل المعرفي

الثاني: عن الفرق بين التواصل المعرفي والتواتر العملي

حجية التواصل المعرفي

لقد استخدم القرآن الكريم كلمتي [الرؤية] و[النظر] في سياق الحديث عن أحداث تبعد عن عصر الرسالة آلاف السنين، وكأنها حقائق مشاهدة، لا يستطيع أحد إنكارها، الأمر الذي يستلزم حفظ الله لهذه الأخبار، والآثار المؤيد لها، عبر هذه "المنظومة المعرفية" لتقوم بها الحجة على الناس، على مر العصور.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ [6] إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ [7] الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ [8] وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي [9] وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ [10] الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ [11] فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ [12] فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ [13] إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [14] الفجر

لقد كانت مساكن عاد وثمود معروفة للعرب، ويتناقلون أخبارها، ويمرون عليها في أسفارهم إلى اليمن وإلى الشام.

فما الدليل على صحة هذا الكلام، إلا أن نؤمن بحجية هذه المنظومة المعرفية التي حفظ الله تعالى عن طريقها اللسان العربي والآثار التاريخية، كي تظل الكلمة القرآنية بفاعليتها على مر العصور؟!

وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ [38] العنكبوت

لقد حفظ الله تعالى عن طريق هذه المنظومة المعرفية معاني الأسماء في اللسان العربي، وكيفيات أداء الأفعال، والآثار التاريخية..، التي تعطي للكلمة القرآنية فاعليتها على مر العصور؟!

إن الذي يجهل تواصل المعارف، كيف يأخذ العبر من حقائق التاريخ؟!

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ [51]

فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [52] النمل

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ [137] وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ [138] فصلت

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الْغَافِلِينَ [3] يوسف

التواصل المعرفي وبيان معاني الأسماء:

لقد حرف أتباع الرسل، ليس فقط شريعتهم، وإنما أيضا ملة التوحيد التي تقوم عليها هذه الشريعة. ثم تواصلت هذه المعارف المحرفة على مر العصور حتى جاء القرآن يصحح ويفصل بين الحق والباطل، ويحذر أتباع الرسول الخاتم، عليه السلام أن يفعلوا مثل ما فعل السابقون فينسبون إلى الله أو إلى رسوله ما لم ينزل به سلطانا.

لقد ذكر القرآن صراحة أن كتاب عيسى عليه السلام، هو الإنجيل:

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [27] الحديد

كما ذكر القرآن أن الله علَّم عيسى عليه السلام، التوراة والإنجيل فقال تعالى:

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ [48] آل عمران، والمائدة [10]

ولا شك أن التوراة نزلت قبل الإنجيل، لقوله تعالى:

وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ [46] المائدة

والآن يأتي السؤال: هل ذكر القرآن أن الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام، هو التوراة؟!

الحقيقة لا دليل مباشر في القرآن يصرح بأن التوراة هي كتاب موسى، عليه السلام!!

إن الذي ذكره القرآن أن التوراة حَكَمَ بها النبيّون زمنا طويلا، ثم حُرّفت، ولم يحفظ الله تعالى منها إلا ما يقيم به حجته ببعثة خاتم النبيين محمد عليه السلام وإظهار كتابه على الدين كله؟!

إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْنِي وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ [44] المائدة

وإن المتدبر لكتاب الله يعلم أن الآيات التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، هي سبع عشرة آية، وجميعها لم تتحدث عن التوراة إلا ككتاب حكم به النبيّون من بني إسرائيل، وعلمه الله تعالى لعيسى، عليه السلام، ولم يأت مقترنا باسم موسى عليه السلام، كما هو متبع مع كتب الرسل جميعا، وإنما جاء اسم موسى، عليه السلام مقترنا باسم: الكتاب، والفرقان، والصحف:

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [53] البقرة

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى [18] صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى [19] الأعلى

إذن من أين جئنا بأن التوراة هي كتاب موسى، عليه السلام؟! وهل هي معرفة صحيحة أم خاطئة؟! وما البرهان على ذلك؟! وهل التوراة هي الكتاب المقدس المعروف باسم "العهد القديم"؟! وإذا كان هذا الكتاب مؤلفا من كثير من "الأسفار" فإن من اليهود من يؤمن بأن خمسة فقط من هذه الأسفار هي التي احتوتها التوراة، وهي ما احتواه كتاب موسى، عليه السلام، أما باقي أسفار "العهد القديم" فليست من التوراة.

فأين نجد الحقيقة إذن؟! ومن أي المصادر المعرفية نستمدها؟!

إنه بدون اتخاذ "منظومة التواصل المعرفي" مصدرا معرفيا لفهم القرآن، لن يقف الإنسان على كثير من عطاءات القرآن، ولا على تفاعل آياته مع السنن الكونية، ولا على كيفية أداء ما أجمله من أحكام، ولا على فاعلية القصص القرآني.

إذن فدعوى فهم القرآن بالقرآن، دون الرجوع إلى هذه المنظومة المعرفية دعوى غير صحيحة، ذلك أن الأمر يحتاج إلى بحث ودراسة متدبرة للقرآن ككتاب إلهي ولغيره من المصادر المعرفية التي حفظ الله تعالى منها ما يجعل لرسالته الخاتمة فاعلية على مر العصور، وإلى يوم الدين.

ولقد بيّن القرآن قصة موسى، عليه السلام، مع السامري فقال تعالى:

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي [86] قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ [87] طه

فكيف نفهم قوله تعالى: "حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ" من نصوص القرآن وحده، بعيدا عن سياقها التاريخي الذي حملته لنا هذه المنظومة المعرفية؟!! إذن فما هي هذه الأوزار، وأين قذفها قوم موسى وماذا ألقى السامري، ثم من هو السامري أصلا؟!!

وعندما تحدث القرآن عن عدة الشهور، فقال تعالى:

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [36] التوبة

فهل المقصود بـ "عِدَّةَ الشُّهُورِ" الشهور العربية أم الميلادية؟!!

وما الدليل على أنها الشهور العربية؟!!

وهل أسماؤها، منذ أن خلق الله السموات والأرض، هي نفسها المعروفة لنا اليوم والتي منها "شهر رمضان" أم حدث تحريف في هذه الأسماء؟!

وعندما ذكر القرآن اسم صلاتين من الصلوات المفروضة على المسلمين، فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [58] النور

فهل هاتان الصلاتان [الفجر، والعشاء] هما فقط المفروضتان على المسلمين؟!

أم أن ما ورد في سياق الآية مجرد إشارة لبيان أوقات الاستئذان، وليس لبيان أسماء الصلوات المفروضة على المسلمين، الأمر الذي يعتبر في نفس الوقت دليلا على صحة ما أتت به "منظومة التواصل المعرفي" من أسماء باقي الصلوات الخمس؟!

ولقد أمر الله تعالى المسلمين بالمحافظة على أداء صلاة من يوم الجمعة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [9] الجمعة

ولا شك أن المسلمين في عصر الرسالة أدوا هذه الصلاة مع رسول الله عليه السلام بصورة، وعلى حالة يستحيل أن يتخلوا عنها بعد وفاته. فعلى أي أساس منطقي، قبل أن يكون شرعيا، لا نؤمن بأن وقت هذه الصلاة، وكيفية أدائها، هو وقت صلاة الظهر الذي حملته لنا "منظومة التواصل المعرفي"، منذ عصر الرسالة، ومرورا بعصرنا، وإلى قيام الساعة؟!

وعندما نقرأ قوله تعالى:

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً [25] مريم

فهل حمل القرآن الكريم بين صفحاته صورة النخلة، والفرق بينها وبين الشجرة التي هي معرفة عالمية؟! هل يعقل أن يكون قد حدث تحريف في مفهوم [النخلة] فورث الناس الشجرة على أنها النخلة؟!

وهل النخلة التي عرفتها مريم، عليها السلام، غير النخلة الذي عرفها أهل الجزيرة العربية، غير النخلة الموجود في عصرنا؟! إذن فهناك مصدر معرفي خارج حدود الكتاب الإلهي، يستحيل الاستغناء عنه لفهم آياته!!

وعندما نقرأ قوله تعالى:

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ [29] العنكبوت

فهل [النادي] في قوله تعالى: "وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنكَرَ" الذي كان موجودا في عصر لوط، عليه السلام، هو نفسه المكان المعروف للناس إلى يومنا هذا؟!

فمن الذي حفظ دلالة هذه الكلمة في اللسان العربي؟! إذن فالقضية ليست في تواتر الأخبار، والمرويات، التي حملتها "منظومة التواصل المعرفي"، وإجماع الناس على صحتها، وإنما القضية في حجية هذه المعارف القائمة على حجية النص الإلهي الذي أنزله الله تعالى على رسله.

التواصل المعرفي وكيفية أداء الأفعال:

وكما حملت هذه المنظومة المعرفية للناس معاني الأسماء، حملت لهم أيضا كيفيات أداء ما أجمله النص القرآني من معان.

إن الله تعالى لم يبين كيفية أداء القيام والركوع والسجود، التي تؤدى في الصلاة فإذا نظرنا إلى معنى كلمة "الصلاة" في اللسان العربي وجدناها تعني الدعاء، وكذلك تعني الهيئة المعروفة للمسلمين. فعندما يخبرنا الله تعالى في أول سورة البقرة أن من صفات المتقين أنهم "يقيمون الصلاة" فكيف عرفنا أن إقامة الصلاة هنا تعني أقامة الهيئة المعروفة لنا اليوم في مواقيتها المحددة وبعدد ركعاتها، وليس معناها إقامة الدعاء: كإقامة الدين، وإقامة الشهادة، وإقامة الوجه لله؟! وإذا سلمنا بأن معناها الهيئة إذن فمن أي المصادر عرفنا أن الركوع في هذه الهيئة مرة واحدة، والسجود مرتان؟!

لقد عرف العرب معنى الركوع والسجود، وكيفيته، من منظومة المعارف العالمية كما عرفت السيدة مريم، عليها السلام، هذا المعنى.

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [43] آل عمران

وعندما خاطب الله تعالى العرب بمناسك الحج، التي انحرفوا بها عن ملة أبيهم إبراهيم، عليه السلام، وجاء القرآن يصحح لهم انحرافهم هذا..، فإنه خاطبهم بمعارف أممية، تخص أمة العرب.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ [125] البقرة

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ...[البقرة 158]

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ...[المائدة 97]

فهل عندما أمر الله تعالى المسلمين بأداء فريضة الحج، هل بيّن لهم في القرآن الموقع الجغرافي لمناسك الحج، وخارطة الطريق الموصل إليها؟! إذن فكيف سنفهم من القرآن وحده أين هي أماكن أداء مناسك الحج؟! كيف سنتعرف من القرآن وحده على البيت، ومقام إبراهيم، والصفا والمروة والمشعل الحرام، وعرفات..، التي وقف عليها المسلمون الأوائل لأداء هذه الفريضة؟! وهل هذه الأماكن هي نفسها التي كانت معروفة للناس، والمتوارثة اسما ومسمى عبر "منظومة التواصل المعرفي"؟!

إنه لو مكث المسلم عمره كله يدرس هذه الآيات ويتدبر معانيها في القرآن دون سابق معرفة بها، أو لصورها المتعلقة بذهنه، فلن يستطيع أن يؤدي ما أمره الله فيها من مناسك؟! فهل سيعرف معنى "بِبَطْنِ مَكَّةَ" في قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً [24] الفتح

ولقد بيّن القرآن أن هناك ترتيبا لمناسك الحج يجب أن يتبع، فقال تعالى:

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنْ الضَّالِّينَ [198]

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [199]

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ [200] البقرة

فلماذا لم يقل الله تعالى عن الصلاة: "ثم صلوا كما صلى الناس"، وعن الصوم: "وصوموا كما صام الناس"...، كما قال هنا في فريضة الحج: "ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ"؟!

إن قوله تعالى: "ثُمَّ أَفِيضُوا" جاء لبيان ترتيب الإفاضة الثانية، والتي هي بعد الإفاضة الأولى من عرفات، من "المشعر الحرام"، الأمر الذي يستحيل فهمه بمجرد تلاوة الآيات دون أن يرث الناس كيفية أدائها على الأرض التي تؤدى عليها هذه المناسك، بخلاف فريضة الصلاة، والصيام، التي تؤدى في أي مكان!!

وعندما أخبر القرآن عن أحوال قوم موسى فقال تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ [67] البقرة

وعن قصة إبراهيم، عليه السلام، مع ابنه، قال تعالى:

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ [102] الصافات

فهل كان الناس يعرفون معنى "الذبح"، وكيفيته، والفرق بينه وبين طرق القتل المتعددة؟! وهل كان القرآن وحده كافيا لفهم هذه الكيفية، وهذا الفرق، دون تواصل هذه المعرفة بين الناس؟!

لا شك أن الله تعالى خاطب العرب بكلمات كانوا يعرفون مدلولاتها، وكيفية أداء أفعالها، من قبل أن يتنزل القرآن. لقد فهموا ما جاء به القرآن من معارف عالمية، أو أممية تخص أهل الجزيرة العربية.

فإذا قال الله تعالى:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [222] البقرة

فلا شك أن العرب عرفوا معنى قوله تعالى: "فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ اللَّهُ" ولكن هل عرفوا ذلك من القرآن أم من تواصل معنى الإتيان وكيفيته بين الناس عبر هذه المنظومة المعرفية؟!

وعندما يلفت الله تعالى نظر العلماء المتخصصين في علوم طبقات الأرض إلى مصدر معرفي خارج حدود النص القرآني، وهو السير في الأرض، لمعرفة كيف بدأ الخلق، والوقوف على دلائل الوحدانية المسبحة دوما لمبدعها وخالقها الله عز وجل فإن ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا إذا حفظ الله تعالى المعارف الدالة على هذه الكيفية حفظه لهذا النص القرآني.

قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [20] العنكبوت

لقد دعا الله الناس إلى العمل في ميادين آيات الآفاق والأنفس وبآليات عمل القلب ودعاهم إلى السير في الأرض للتعرف على نعمه الموجبة لتوحيده وإفراده بالعبادة.

إن الحفريات التي حملتها الأرض والجبال مئات القرون، والتي كشف العلم أنها تحكي عن حقائق تاريخية، تعتبر مصدرا من مصادر المعرفة. لقد حثنا القرآن على السير في الأرض، لا من أجل السياحة فحسب، وإنما لقراءة الأحداث التاريخية ودراستها وتحليلها وفهمها، والتعرف على نواميس الكون وقوانينه، لتفادي التصادم معها، وتوظيفها لخدمتنا.

إننا لا نأخذ من الماضي ديننا وشريعتنا، وإنما نتعرف عليه لنقرأه، من أجل أخذ العبرة للحاضر، والتأسيس للمستقبل.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [137] آل عمران

لقد جاء القرآن الحكيم يخاطب أهل اللسان العربي بكلمات فهموا معناها وعرفوا مدلولاتها من خلال ما وصل إليهم من معارف عبر هذه المنظومة المعرفية المتصلة بالكينونة البشرية من لدن آدم عليه السلام.

لذلك فإن حفظ الله تعالى لهذه المعارف كان ضرورة يفرضها وجوب تفاعل هذا القرآن مع واقع كل عصر. فلا يمكن تصور أن القرآن يتنزل علينا اليوم بآيات لا تفاعل لها مع ما وصلت إليه المعارف في عصرنا.

لم يكن البشر يعرفون علم طبقات الأرض، ومسألة كرويتها..، ولكن الله الذي علم بالقلم، فتح أمامهم أبواب المعارف المختلفة، وزودهم بقدرات وآليات تمكنهم من كشف أسرار آياته، في الآفاق والأنفس، حتى يتبين لهم أنه الحق.

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [53] فصلت

إن الإنسان بأدوات الفهم السليم لكتاب الله، وبفطرته النقية، يستطيع أن يثبت أنه الحق، وذلك بدراسة ما في هذا الكتاب من آيات، تشهد بتفاعلها مع هذه المنظومة الكونية، على أيدي العلماء المتخصصين.

إن الفهم السليم لكتاب الله، يجعل المعركة مع المخالف في المذهب لا تتعدى أن تكون معركة فكرية أصولية، تصحح فيها المفاهيم بالحجة والبرهان.

إن الكافر الذي ينكر حجية كتاب الله لن يستطع إنكار حجية ما في السموات والأرض من "آيات الآفاق والأنفس"، التي يسعد هو بنعمها ويتمتع بخيراتها. وحتى يتبين أنه الحق لابد من تفاعل بين "الآية القرآنية" وواقعنا المعاصر.

فإذا نظرنا إلى هذا الواقع العلمي المعاصر، وجدنا أنه على الرغم من كونه ثمرة تراكم معرفي، مرّ بمراحل من البحوث والدراسات المتواصلة حتى وصل إلى يومنا هذا إلا أن الذي يهمنا هو بيان أن هذه الحلقة الأخيرة من هذا التراكم المعرفي هي وحدها التي تهمنا، لأنها وحدها التي سيتفاعل معها العطاء القرآني المعاصر لنا.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [61] يونس

تدبر قوله تعالى [وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ] والذي قد اتفق عطاؤه اليوم مع ما اصطلح على تسميته بـ "الفيمتوسكند" والذي يعبر عن منتهى الصغر، والذي لا يمكن رصده إلا بكاميرات يمكنها رصد حركة ما هو واحد على مليون مليار جزء من الثانية.

وهذا الإنجاز العلمي العظيم ما هو إلا أيضا محصلة تجارب سابقة، متعددة عبر سلسلة من المعارف المتواصلة.

ومع إيماننا بأن هذه المعارف، وهذه التقنيات العلمية، سلسلة متصلة الحلقات واعترافنا بأنه لولا حلقات السلف ما وصلت هذه المعارف إلى الخلف إلا أننا نؤمن أيضا بأن لكل عصر متطلباته وتحدياته. إن لكل عصر تحدياته التي تفرض عليه أن ينظر إلى الغد، لا إلى الأمس وأن يعلم أصحاب كل عصر، أن فاعلية ميراث السلف تخص العصور التي ولدت فيها، فلكل عصر عطاءاته.

ويمكننا إيجاز شروط قبول ما حملته لنا "منظومة التواصل المعرفي" من معارف وكيفيات أداء عملي، فيما يلي:

أولا: أن يوجد نص قرآني يشير إلى هذه المعرفة، أو أن يذكر حكما مجملا تأتي هذه المنظومة بكيفية أدائه.

ثانيا: ألا يختلف فعل المسلمين كافة في أداء كيفية الأداء العملي.

ثالثا: ألا يوجد في القرآن ما يتعارض مع هذه المعارف، قولية كانت أو عملية.

إنه لولا تواصل الرسالات الإلهية التي حملت الفرقان والميزان الإلهي الحق لإقامة خلافة الإنسان في الأرض على أحسن حال، ما اهتدى الناس إلى هذه المعارف، وإلى هذه العلوم وهذه التقنيات الحديثة.

إن تطاول الزمن بين الشرائع الإلهية، يؤثر على فاعلية استجابة القلوب لدعوة الرسل، والتمييز بين ما هو شريعة إلهية وما هو موروث ديني وسط تراكم معرفي هائل حملته منظومة التواصل المعرفي إلى الناس.

لقد حرف أهل الكتب السابقة كتبهم، وأدخلوا فيها العقائد الباطلة، والمرويات والأساطير المزيفة التي نسبها الرواة إلى الرسل، ثم تداولتها المجامع بعد ذلك ودونتها في كتبها، ونشرتها كدين مقدس واجب الاتباع، وحملتها منظومة التواصل المعرفي لأتباعهم، فآمنوا بها وصدقوها عبر آلاف السنين، ثم جاء القرآن الحكيم يحذر الذين آمنوا من أن يفعلوا مثل ما فعل هؤلاء، فتقسوا قلوبهم، فيكونوا من الفاسقين.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [16] الحديد

التواصل المعرفي والتواتر العملي

لقد جاء القرآن الكريم يحمل من المعارف ما يشكل منظومة عالمية يفهمها العالم أجمع، وما يشكل منظومة أممية يفهمها أهل اللسان العربي، أهل الجزيرة العربية.

فإذا نظرنا إلى هذه المنظومة الأممية، وجدناها تنقسم إلى:

1. معارف أجمع عليها كافة المسلمين، أتباع الفرق والمذاهب المختلفة كهيئة الصلاة، وعدد ركعاتها، ومواقيتها.

2. معارف أجمع عليها أتباع مذهب من المذاهب، كوضع اليدين في الصلاة.

وعلى هذا الأساس لابد أن نفرق بين أمرين:

الأول: ما هو واجب الاتباع شرعا، وهو ما يشكل "منظومة معرفية"، عالمية كانت أو أممية، بشرط وجود نص قرآني يأمر بموضوع هذا الاتباع، وأجمع على هذه المعارف كافة المسلمين.

الثاني: ما ليس بواجب، وهو ما يشكل "تواترا عمليا" تواصلت حلقاته عند مذهب من المذاهب، فكان محل خلاف بين المذاهب المختلفة، لذلك أسميه "التواتر المذهبي".

فكل ما تواتر من تراث ديني، عند مذهب معين، وإن كان يمثل جزءا من "المنظومة المعرفية" إلا أن نقله عن طريق أتباع المذهب الواحد، يخرجه من دائرة الفرض إلى دائرة المباح.

إن دين الله تعالى لا تثبت حجية نصوصه إلا إذا قام على حجية "الآية القرآنية" التي أجمع كافة المسلمين على صحة نسبتها إلى الله تعالى، منذ عصر الرسالة وإلى يومنا هذا.

لذلك فإن مسألة قبولنا لحجية "التواصل المعرفي" وعدم قبولنا لحجية "التواتر المذهبي"، لا تقوم على هوى، وإنما على قواعد علمية وأصول شرعية، تنطلق من قوله تعالى: "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ".

ومن هذه البراهين الدالة على أن "التواتر المذهبي" مصطلح مذهبي، وليس حجة في دين الله تعالى إلا إذا كان تواصلا معرفيا..، ما يلي:

1. أننا يجب أن نثبت أولا حجية المصدر المعرفي الذي يستقي منه المسلم شريعة ربه، وصحة نسبته إلى الله تعالى. فإذا ما ثبتت هذه الحجية، وقامت على البينة والبرهان الإلهي، لم يعد هناك مجال للحديث عن صحة أو عدم صحة ما حمله هذا المصدر من نصوص الشريعة الإلهية. فما هو المصدر المعرفي الذي صحت نسبته إلى الله تعالى وحمل هذا "التواتر المذهبي"؟!!

2. أن منهج التحقيق العلمي لا يثبت حجية نصوص الشريعة الإلهية بصحة نسبتها إلى الرسل، وإنما بصحة نسبتها إلى الله تعالى، وذلك عن طريق الآيات والبراهين المؤيدة لذلك. ولقد أثبت كافة علماء المسلمين حجية القرآن الكريم وصحة نسبته إلى الله تعالى، على وجه اليقين، ولم يثبتوا صحة نسبة نصوص هذا "التواتر المذهبي" إلى الله تعالى، بل واختلفوا في صحة نسبتها إلى رسول الله، عليه السلام.

3. أن "التواتر المذهبي"، الذي هو أعلى درجات الصحة عند المحدثين، أمر مختلف فيه أصلا بين علماء الفرق والمذاهب المختلفة. وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه من هذه السلسلة من الدراسات.

إن إيماني برسول الله محمد، عليه السلام، وبأنه الذي حمل رسالة الله الخاتمة للناس كافة، لم يقم على أساس تواتر خبره بين الناس، منذ عصر الرسالة وإلى يومنا هذا، وإنما قام على أساس ما ورد في كتاب الله من خبر هذا الرسول الكريم، وما أكده التواصل المعرفي لهذا الخبر.

وكذلك أنا لم أومن بأخبار وأسماء وقصص الرسل السابقين، إلا من خلال هذه "الآية القرآنية" التي لولاها ما استطعنا أن نُؤمن إيمانا يقينيا بأن ما حملته هذه المنظومة المعرفية عنهم من أخبار هو حق وعلم يقين. لقد تواتر خبر قتل عيسى عليه السلام وصلبه، تواتراً يعلو تواتر القرآن نفسه بين المسلمين في عصر الرسالة، ومع هذا، جاء القرآن يكذب هذه المعرفة المتواترة!!

إن المتدبر لمسائل الخلاف حول الحديث المتواتر، يمكن أن يصل إلى: أنه لا يوجد شيء في مسائل الشريعة الإسلامية، واجب الاتباع، إلا ما اتفق عليه كافة علماء المسلمين، وحملته "منظومة التواصل المعرفي"، وجاء به نص قرآني. وأن ما تدعي كل فرق، بأنه متواتر، قد قام على مرويات مذهبية، منسوبة إلى رسول الله، عليه السلام، إن صحت عند فريق لم تصح عند آخر!!

وهذا هو الفرق الجوهري بين ما "تواصل معرفيا" بين كافة المسلمين، ويقوم على فاعلية "الآية القرآنية"، وما "تواتر مذهبيا"، بين فريق من الناس، ويقوم على فاعلية "الرواية المذهبية"!!

إن "التواصل المعرفي"، و"التواتر المذهبي"، يشتركان في أنهما نقل الناس لخبر أو لحدث مشاهد، أو لكيفية أداء حكم شرعي..، ثم يختلفان في أن:

الأول: هو نقل أصحاب الملة الواحدة كافة.

والثاني: نقل فريق منهم. فجميع المسلمين يُصلّون، فهذا تواصل معرفي، ولكنهم يختلفون، مثلا، في وضع اليدين في الصلاة، كلٌ حسب مذهبه الذي نشأ فيه..، فهذا تواتر مذهبي.

إن أتباع كل مذهب يتوارثون كيفية أداء الصلاة عن طريق "التواتر المذهبي" كمعظم المسائل الخلافية المتعلقة بهذا الباب، في الوقت الذي يشترك فيه كافة المسلمين في أداء الأصول العامة المجمع عليها عند أداء هذه الصلاة، عن طريق "التواصل المعرفي" الذي يعتبر "التواتر المذهبي جزءا منه!!

وسواء كان الأمر يتعلق بـ "التواتر"، أو بـ "التواصل" فإننا نتعامل مع كيفيات أداء عملية وليس مع نصوص قولية، وذلك لاستحالة وجود نص قولي متواتر، إلا إذا تولى الله تعالى بنفسه حفظه كما حفظ النص القرآني.

وعلى هذا الأساس يخرج "التواتر المذهبي" من دائرة الحجية، ووجوب الاتباع ليدخل دائرة المباح ما لم يخالف موضوعه نصا قرآنيا.

إن كتاب الله تعالى عندما تحرك، على مر العصور، فإنه تحرك في إطار منظومة معرفية عالمية، وليس في إطار "التواتر المذهبي" المغلق على أتباع فرقة، أو على أتباع مذهب من مذاهب الفرقة الواحدة.

لقد حملت "منظومة التواصل المعرفي" رسالات الله فرقانا يُعين الناس على الاهتداء إلى صراط ربهم المستقيم.

وبعد أن كان الناس يؤمنون بالله، وبرسله على أساس الآيات الحسية جاءت الرسالة الخاتمة لتعلن عن بداية عصر الإيمان بـ "الآية القرآنية"، التي تقوم فاعليتها على أساس تفعيل آليات عمل القلب، إلى يوم الدين.

لقد جاءت "الآية القرآنية" لتتواصل مع هذه المنظومة المعرفية، تنقل لنا صورة من حركة التفاعل المعرفي التي شهدها هذا الوجود، منذ أن خلق الله تعالى آدم، عليه السلام، لنتخذه مرجعا معرفيا يسير جنبا إلى جنب "الآية القرآنية" يبين لنا مدلولات كلماتها، وعطاء آياتها.

جاءت "الآية القرآنية" آية عقلية ليظل نورها قائما بين الناس مادام هناك عقلاء بينهم، يعرفون مهمتهم في هذه الحياة، ويتحملون مسئوليتهم تجاهها، بعد أن وصلت البشرية إلى هذا التقدم التقني المذهل.

جاءت "الآية القرآنية" تدعو الناس لإقامة منهج علمي للتفكير، يميزون به بين الحق والباطل، بين الحسن والقبيح، بين الطيب والخبيث.

ومنذ أن فصل المسلمون بين القرآن وتفاعل آياته مع هذه المنظومة المعرفية، التي جعلها الله تعالى حجة على الناس إلى يوم الدين، انفصل الجسد عن النفس، وانفصلت الحواس عن القلب، وتحرك المسلمون في دائرة مغلقة كل حسب مذهبه الذي ولد فيه وقاتل في سبيله!!

إننا إذا تصورنا أن هذه المنظومة المعرفية عبارة عن دائرة كبيرة، بداخلها دوائر صغيرة، هي مذاهب وملل البشر من لدن آدم، عليه السلام، فإن القرآن الحكيم جاء حاكما على كل هذه الدوائر المعرفية ومهيمنا عليها.

إن هذا القرآن الذي معنا اليوم، والذي وصلنا عبر هذه المنظومة المعرفية محفوظا بحفظ الله له، قد أقام الإسلام في قلوب خير أمة أخرجت للناس، هؤلاء الذين ضربوا المثل الأعلى في بناء النفس على التوحيد الخالص، والجهاد من أجل إقامة موازين الحق والعدل بين الناس، وتثبيت دعائم قاعدة "لا إكراه في الدين" من أجل المحافظة على حرية وكرامة الإنسان.

فلماذا لم يرتفع المسلمون بعد وفاة رسول الله محمد، عليه السلام إلى مستوى صحابته، والقرآن هو القرآن؟!

وإذا كان معظم المسلمين قد ولدوا جميعا أسرى إيمانهم الوراثي، ألا يفرض عليهم ذلك، وفي أية مرحلة من مراحل حياتهم، أن يعيدوا النظر في هذا التدين الوراثي على أساس الحجة والبرهان؟!

إن الذين يثقون بآبائهم ثقة مطلقة، فيقلدونهم تقليدا أعمى، هؤلاء لا يقدرون على قراءة آيات الآفاق والأنفس، ولا على فهم السنن الكونية، ولا اتخاذ العبرة من "منظومة التواصل المعرفي".

إنه لا قيمة لهذا الوجود البشري دون بناء الإنسان بناءً معرفيا يمكنه من قراءة الآيات الكونية وتناغمها مع الرسالات الإلهية، وتسخيرها والانتفاع بها من أجل تزكية النفس وإحداث التغيير المنشود.

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [1] خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ [2] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ [3] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [4] عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [5] العلق

إن العلم وآليات تحصيله، هما أول الطريق إلى معرفة الله تعالى، والوقوف على دلائل وحدانيته، وفاعلية أسمائه الحسنى.

إن منهج التفكير العلمي منهج منطقي يسلكه الإنسان ليصل إلى معرفة الحق عن طريق الملاحظة والاستنباط وإقامة الحجة والبرهان، وسط هذا التراكم المعرفي.

ولا شك أن ذلك يحتاج إلى إعادة قراءة الآيات القرآنية وتفاعلها مع السنن الكونية قراءة صحيحة. لذلك كان أهم وأول عمل قمت به، لبناء إيماني على أساس علمي يقيني، هو التعرف على الله تعالى، وعلى دلائل وحدانيته، وفاعلية أسمائه الحسنى ونعمه التي لا تحصى..، وذلك بإعادة قراءة نصوص هذه "الآية القرآنية"، قراءة أقيم على أساسها توحيدي وإخلاص عبوديتي لله تعالى، وإيماني بصدق رسول الله محمد عليه السلام، الذي أُنزلت عليه.

فإلى المدخل الفطري إلى التوحيد، ودلائل الوحدانية

دلائل الوحدانية

حجة الله على العالمين

إن أفضل كتاب يحدثنا عن دلائل الوحدانية، ويهدينا إلى صراط الله المستقيم هو القرآن الكريم. لقد بين القرآن للناس قضية التوحيد بأسلوب سهل تفهمه جميع القلوب السليمة، لا تكلف فيه ولا تعقيد، يخاطب فطرتهم، ويعتمد على النظر والمشاهدة لمنظومة كونية مترابطة، متناغمة، تتفاعل مع آيات الذكر الحكيم، شاهدة لخالقها، الله عز وجل، بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا.

لقد عرض الله تعالى دلائل وحدانيته، التي شملت كل ذرة من ذرات هذا الكون على شاشة عرض شملت الوجود كله، تثبت صدق الله فيما أنزل، وصدق رسوله فيما بلغ، وأن هذا الكتاب الحكيم، هو "الآية القرآنية" التي حملت حجيتها في ذاتها، وهي القائمة بين الناس إلى يوم الدين.

لقد نقل القرآن الكريم صورة حية من صور التفاعل بين فطرة التوحيد ودلائل الوحدانية التي عمت الوجود كله. لقد ضرب إبراهيم، أبو الأنبياء، عليه السلام، المثل الأعلى في إعلاء قيمة التفكر والتعقل والنظر.. للوقوف على دلائل الوحدانية الموصلة إلى خالق هذا الكون. خرج إبراهيم يبحث عن خالقه ينظر في الكون ويتأمل ما فيه بفطرته النقية، وتفاعلها مع آليات عمل قلبه السليمة.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ [74]
وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ [75] الأنعام

لقد اتبع إبراهيم، عليه السلام، في رحلته إلى التوحيد، منهج الاستدلال العقلي منهج البحث عن الحقيقة، ليصل إلى فاطر هذا الكون ومبدعه.

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ [76]

فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ [77]

إن الوقوف على فاعلية أسماء الله الحسنى، وصفاته العُلى، لا يتحقق بمعزل عن النظر إلى آيات الآفاق والأنفس من خلال آليات التعقل والتفكر..، أي بعين البصيرة. فإذا كانت العين تبصر الوجود المادي، فإن القلب يدرك ما وراء هذا الوجود، فيرى الوحدانية بعين البصيرة.

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ [78] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ [79] الأنعام

إن تقديس ميراث الآباء الديني، بغير علم وهدى من الله تعالى، هو الطريق إلى الشرك بالله، لذلك كان اتباع منهج الاستدلال العقلي عاصما من الشرك ومن الانزلاق في صوره المتعددة.

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ [80] الأنعام

إن النجاة من الشرك، واتباع صراط الله المستقيم، لا يتحققان إلا إذا وقف الإنسان على عظم المعصية التي يرتكبها في حق الله تعالى، فيخاف ربه، عندما يشرك به دون أن يقيم الدليل والبرهان العلمي على ذلك.

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [81] الأنعام

إن السلام الحقيقي يكمن في الإيمان بالله، والتبرؤ من الشرك وأهله، والاعتصام بصراط الله المستقيم. لذلك فإن الذين يستحقون الحياة الآمنة هم:

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [82] الأنعام

إن التناغم الصادق بين آيات الذكر الحكيم، وآيات الآفاق والأنفس، دعوة عالمية إلى النظر والتأمل والتفكر في دلائل الوحدانية، ليقيم المرء إيمانه بالله ورسله، وبكتابه الخاتم على الحجة والبرهان، متخذا إبراهيم، عليه السلام نموذجا وأسوة.

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ [83] الأنعام

إن إقامة الوجه لله تعالى، والتبرؤ من الشرك وأهله، أصل الدين القيم، الذي أمر الله تعالى رسوله محمدا، عليه السلام، أن يقيمه بين الناس:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [30] مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ [31] الروم

إن حجية "الآية القرآنية" تقوم على أدلة وبراهين فطرية وعقلية، وعندما يصبح الجهل والهوى، والتقليد الأعمى لميراث الآباء الديني، هو المحرك الرئيس لعقائد الناس وسلوكهم الاجتماعي، فإن ذلك يقف حائلا بينهم وبين التعرف على أدلة صدق النبوة، القائمة على فاعلية هذه "الآية"..، فتقسوا قلوبهم ويختلفوا، ويتفرقوا في الدين.

مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [32] الروم

لقد أمر الله رسوله الخاتم، والناس أجمعين، بالتأسي بإبراهيم والذين آمنوا معه، لأنهم ضربوا المثل الأعلى في إقامة الوجه للذي فطر السموات والأرض، والتبرؤ من الشرك وأهله.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ [4] الممتحنة

لقد أسلم إبراهيم، عليه السلام، وجهه لله، بعد أن أثبت بالأدلة العلمية والمنطقية أن الله وحده هو الخالق، وهو الحاكم، وهو المشرع..، المستحق وحده للعبادة.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً [125] النساء

وإن النتيجة المنطقية، بعد الإيمان بدلائل الوحدانية، وربط فطرة التوحيد التي فطر الله الناس عليها، بهذا الإيمان، أن يقر من أسلم وجهه لله تعالى، بوجوب إرسال الله تعالى الرسل، لهداية الناس إلى صراطه المستقيم. وهذا ما أكده إبراهيم، عليه السلام كنتيجة منطقية لما سبق من مقدمات عندما قال لقومه:

قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ [75] أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ [76] فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ [77] الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [78] الشعراء

نعم.. "الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ". إنه إقرار بحق الله تعالى وحده، دون منازع في أن يخلق وأن يهدي وأن يحكم وأن يشرع..، وإن ادعاء أنه سبحانه وتعالى قد فوض أحداً من رسله في أن يشاركه في الحكم، أو في التشريع هو ادعاء باطل، لا برهان عليه بل وينقض أصل التوحيد، الذي يقوم على تفعيل آليات عمل القلب، ليستنير القلب بنور الفطرة الإيمانية، فيعود إلى رشده فيرى دلائل الوحدانية بنور البصيرة.

أما مرضى القلوب، الذين عطلوا ما كرمهم الله به من آليات عمل القلب، هؤلاء يعيشون في ظلمات الجهل والتقليد الأعمى لآبائهم، فكيف يقفون على دلائل الوحدانية في الآفاق وفي أنفسهم، وقد عطلوا عمل آليات التفكر، والتدبر، والتعقل، والتفقه والنظر....، آليات عمل القلب؟!

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [3]

وفي الأرض قطع متجاورات، ولكنها مختلفة بعضها عن بعض، فهذه أرض طينية وأخرى صخرية، وهذه سوداء وأخرى صفراء. وفي اختلاف أصناف ثمار هذه الأرض نعم كثيرة، ففي النوع الواحد منها ثمار متعددة، والإحساس بالطعم والرائحة أيضا متعدد وكلها تسقى بماء واحد.

وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [4] الرعد

انظر إلى المخاطبين بهذه الآيات: "لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"، "لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" لتقف على أهمية التفكر والتعقل للوقوف على دلائل الوحدانية.

إن آيات الآفاق والأنفس تتكامل فيما بينها لتشكل منظومة الأسماء الحسنى وتفاعلها مع "الآية القرآنية"، من خلال آليات عمل اللقب.

ويعرض لنا القرآن الحكيم مزيدا من دلائل الوحدانية في الآفاق والأنفس:

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [97] وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ [98] الأنعام

إن الخلق إيجاد من عدم، أما الإنشاء فهو إيجاد مع الرعاية..، فناسب ذلك الحديث عن الاستقرار والاستيداع. فالله تعالى خلق الناس من تراب، من جنس واحد، ونوع واحد، ويعلم من استقر منهم على الأرض، ومن هم لا يزالون مستودعين في الأصلاب أو في الأرحام.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [6] هود

ثم يذكر سياق آيات سورة الأنعام، والحديث عن عظيم القدرة الإلهية، كيف أن الأرض تُخرج نباتات مختلفة الصفات والثمرات، والمذاق، وكلها نابتة من ماء واحد ماء السماء.

وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [99] الأنعام

تدبر قوله تعالى مخاطبا الناس بدليل مشاهد أمامهم: "انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ"، وفيه بيان بأن قضية التوحيد، والوقوف على دلائل الوحدانية، مسألة ميسرة جدا لا تحتاج من الإنسان أكثر من أن ينظر بعين البصيرة.

والآن: هل يعقل أن تكون النتيجة المنطقية بعد كل هذه المقدمات هي: أن يُشرك الناس بالله تعالى؟!

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ [100] الأنعام

فلماذا يشركون بالله تعالى؟! لأنهم:

لا يريدون أن يفكروا، والله تعالى يقول: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ".

ولا يريدون أن يعقلوا، والله تعالى يقول: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"

ولا يريدون أن يعلموا، والله تعالى يقول: "قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ".

ولا يريدون أن يفقهوا، والله تعالى يقول: "قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ".

ولا يريدون أن يؤمنوا، والله تعالى يقول: "إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ".

إن تفعيل الإنسان لآليات عمل قلبه، هو الأصل، والقاعدة التي سيقيم عليها إيمانه بفاعلية "الآية القرآنية"، وإظهار عطائها المتجدد على مر العصور.

إنها دعوة إلى الفقهاء الربانيين، هؤلاء الذين يفقهون العلاقة بين "الآية القرآنية" وآيات الآفاق والأنفس، وآليات عمل القلب، فيقيمون على هذا الأساس الشهادة على الناس كما أمرهم الله تعالى. ولقد أقام رسول الله شهادته على الناس على أساس تفعيل "الآية القرآنية" في عصره، فلماذا لم يقم المسلمون شهادتهم في عصرهم على نفس الأساس؟!

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [77] وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ [78] الحج

إن الشهادة على الناس مسئولية لا يتحملها إلا قلب مؤمن، قلب أخلص عبوديته لله تعالى، وأقام توحيده وإسلامه على فهم واع لدلائل الوحدانية.

إن القلب المؤمن، قلب أضيء بنور "الآية القرآنية"، التي حملت الشريعة الإلهية للناس كافة، فاستطاع أن يرى ظلمات الشرك والهوى، ومذاهب البشر الباطلة.

فانظر كيف شبه القرآن هذه الظلمات، بظلمات البحر حين تتراكم أمواجه الشديدة بعضها فوق بعض، وتحجب السحب ضوء الشمس عنه.

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [40] النور

تدبر قوله تعالى: "وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ". فمن أين سيأتي هذا المرء بنور الهداية؟! هكذا حياة الكافر يعيش في ظلمات بعضها فوق بعض.

إنها أمراض القلوب كلها. أمام هذه الصورة المظلمة نرى الكون كله من حولهم يملؤه أثر سجود ذراته لخالقه وتسبيحه بحمده، وإن أبى الكافرون المكذبون العصاة أن يسجدوا له ويسبحوا بحمده.

ونرى نور المؤمنين المخلصين الموحدين المسبحين بحمد ربهم، ينادي هؤلاء المكذبين لعلهم يهتدون به إلى صراط ربهم المستقيم.

ولكننا نرى كثيرا منهم لا يريدون الهداية.

إنه الاضطراب النفسي، وعدم الأمان، والخوف..، إنه حال القلوب التي أوقفت عمل آلياتها، من تفكر وتعقل..، فلم تقف على التناغم القائم بين "الآية القرآنية" والكون من حولها..، وهذا هو الطريق المثبت لوحدانية الله، ولوجوب اتباع شريعته.

إن الكون كله يسجد لخالقه، مستسلما لمشيئته، مطيعا لأمره.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [18] الحج

إن الاسم الواحد من أسماء الله الحسنى، يحمل من الصفات الإلهية المترابطة المتداخلة المتناغمة، ما يصعب تصنيفه مستقلا عن باقي الأسماء الحسنى.

فأنت إذا أدخلت آية من آيات هذه المنظومة في منظومة "الخلق"، فستجد أن نفس الآية يمكن أن تُنسب إلى منظومة "القدرة"، وكذلك إلى منظومة "التدبير" فلا خلق من غير قدرة ولا قدرة من غير تدبير، ولا تدبير من غير إرادة وحكمة...، وهكذا.

وإن الذين أعملوا آليات التفكر، والتعقل، والنظر..، وأقاموا إيمانهم على منهج الاستدلال العقلي..، يعلمون أن الإنسان الذي يأبى أن يسجد لخالقه، ويطيع شريعته إنسان جعل بينه وبين حقائق الوجود حاجزاً، هذا الوجود الساجد لخالقه، وإن أبت نفسه السجود بإرادتها.

هذا الوجود الذي يحمل من دلائل الوحدانية ما لا تحصى نعمه.

إن الحديث عن دلائل الوحدانية، وحجيتها على العالمين، من خلال التفاعل الحي بين "الآية القرآنية"، وآيات الآفاق والأنفس..، كتبت، وتكتب، فيه المجلدات، ويسهل على المرء الوقوف على ذلك من خلال شبكة الإنترنت، وما هذا الفصل إلا قطرة من هذا البحر الذي لا ينفد مداده.

لذلك لن أتحدث كثيرا عن عطاءات الآيات التي سأذكرها في هذا الباب، لأترك القارئ يعيش بنفسه مع هذه العطاءات، ويبحث بنفسه عن كنوزها.

منظومة "الخلق"

لقد سخر الله الكون ليتعرف الإنسان من خلاله على خالقه وما أودع فيه من حقائق لا ينكرها إلا من فسدت آليات تفكره، وتعقله، وتدبره..، آليات عمل القلب. ولا سبيل إلى التعرف على خالق هذا الكون، وعلى فاعلية أسمائه الحسنى وصفاته العُلى إلا بالاستجابة لنداء الفطرة الذي يقول: إن لكل مَوجود مُوجدا، ولكل حدث محدثا.

فأنت إذا أحدثت صوتا بجوار طفلك فإنك تراه ينظر حوله باحثا عن مصدر هذا الصوت ومحدثه. وإذا قمت من نومك فوجدت مائدة وقد ملئت بأطايب الطعام والشراب فلا شك أنك ستسأل عن موجدها ومُعدّها.

فهل يمكن أن يوجد مخلوق من غير خالق؟! وهل هناك خالق يترك المخلوق من غير نظام يقوم عليه وجوده؟!

إن الآيات الدالة على تفرد الله بالخلق لا تحصى، ولم ينف أحد عن الله تعالى هذا التفرد، فلم يشهد الكون، منذ أن خلقه الله تعالى، منازعا لله في ذلك.

إن واقع بني آدم وتناسل ذرياتهم، وعمارة الأرض بهذه الذرية، يؤكد أن وراء ذلك خالقا عظيما خَلَقَ وقدر ورزق ورحم وأحيا وأمات، فمنطق الفطرة ينفي أن يكون الناس قد خلقوا من غير خالق، كما أن واقع حالهم ينفي أنهم هم الخالقون.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ [35] الطور

إن توجيه الأسئلة المنطقية للخصم يساعد على إبطال شبهاته لأن الإجابة عليها لا يستطيع عاقل إنكارها، وهذا ما يزيد الحجة قوة وضياء.

إن أي باحث يتعرض بحثه لسرقة أو اقتباس، فإنه يقيم الدنيا ولا يقعدها، حتى يعلم الناس جميعا أنه هو المالك الحقيقي لهذا البحث، فمن المالك الحقيقي لهذا الكون؟!

وهل الإنسان خُلق من غير خالق، أم هو الذي خلق نفسه؟!

لم يدع أحد من الإنس أو الجن أنه هو الذي خلق، ولا يعقل أن تكون السماوات والأرض هما اللتان خلقتا نفسيهما.

أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ [36] الطور

إن الغاية من خلق الإنسان: أن يعبد الله مخلصاً له الدين، وأن يؤدي شكره أن هداه إلى صراطه المستقيم، وذلك بفهم صحيح لحقيقة التوحيد. لذلك كانت البداية لفت نظر الناس إلى منظومة "الخلق" ودعوتهم إلى عبادة الله الذي خلقهم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [21] الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [22] البقرة

إن تقوى الله تعالى تنطلق من قاعدة إخلاص العبودية لله تعالى [اعْبُدُوا رَبَّكُمْ] والإقرار بربوبيته عز وجل لهذا الوجود [الَّذِي خَلَقَكُم].

لذلك فإن تقوى الله تستلزم تقوى الرب، وتقوى الرب تستلزم تقوى الله، حسب ورودهما في السياق القرآني.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً [1] النساء

إن تقوى الله هي غاية العبودية الخالصة لله تعالى وثمرتها، وبتحققها تستقيم حياة الناس فلا يقبلون ما يفسد فطرتهم، ويلوث بيئتهم. إن دعوة الله تعالى الناس إلى تقواه هي في حقيقتها دعوة إرشاد لهم ورحمة بهم، لما فيه مصلحتهم وسعادتهم.

لقد ربط الله التقوى في الأولى [اتَّقُوا رَبَّكُمْ] بصفات الربوبية، بمنظومة "الخلق" فالسياق سياق ترغيب يقتضي تذكير المخاطبين بخالقهم ورازقهم ومدبر شئون حياتهم وحثهم على إعمال آليات قلوبهم للوصول إلى أن الإيمان بصفات الربوبية يستلزم الإيمان بصفات الألوهية.

أما في الثانية [وَاتَّقُوا اللَّهَ] فقد ربطها الله تعالى بصفات الألوهية، حيث إن السياق سياق حكم تشريعي يقتضي إدخال المهابة في نفوس السامعين الذين سيسألون يوم القيامة عن تقصيرهم في حقوق أرحامهم..، وغير ذلك من تشريعات أخرى جاءت بها آيات الذكر الحكيم لبيان علاقة التلازم بين الإيمان بصفات الألوهية والربوبية.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [16] الرعد

نعم.. "قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ". إذن فعلى أي أساس عقلي يتخذ الناس من دون الله أندادا في الوقت الذي يؤمنون فيه بربوبيته لهذا الوجود؟!

إننا عندما ننطلق من منهج الاستدلال العقلي، نجد أن العلاقة وثيقة بين منظومة "الخلق" وأحكام الشريعة وحجية "الآية القرآنية".

إن الإيمان بحجية هذه المنظومة الكونية يستلزم الإيمان بحجية "الآية القرآنية" ويستلزم الإيمان بوجوب اتباع ما حملته من شريعة إلهية.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [164] البقرة

تدبر قوله تعالى: "لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".

إن الوقوف على دلائل الوحدانية ضرورة عقلية تقر بها القلوب السليمة، التي نزهت الله تعالى عن كل نقص وعيب، فسجدت له، ولم تشرك في حكمه أحدا.

تدبر قوله تعالى في سورة الرعد:

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ [15]

إن الكون كله ينطق بالوحدانية، وهو ساجد لله تعالى، وكأن له قلبا ينبض بذلك. أما الإنسان الذي ميزه الله عن خلقه بآليات التفكر والتعقل..، آليات عمل القلب، راح يكذب ويستكبر ويشرك ويكفر بالذي خلقه، ويتخذ من دونه أندادا ويسجد لهم!!

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ [165] البقرة

إن آلاف العمليات التي تتم في جسد الإنسان، في كل لحظة، بل وفي أقل من اللحظة، لا يستطيع الإنسان منعها من القيام بوظائفها، ومن السجود لبارئها، إلا إذا قتل الإنسان نفسه!!

كما أنه لا يستطيع أن يمنع ظله من الظهور على الأرض، وهو يتحداه أن يتخلص منه، إلا إذا استطاع أن يلغي الشمس من هذا الوجود.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ [41] وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ [42] الصافات

تدبر قوله تعالى: "كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ".

لقد تعلم كل مخلوق نظام عمله في هذا الكون، وكيفية أدائه على أحسن حال. لقد تعلمت المخلوقات أن الصلاة هي الصلة الدائمة بين الخالق والمخلوق والتي تتمثل في الطاعة المطلقة للخالق وأن التسبيح هو التفاعل الإيجابي الحي لهذه الطاعة.

إن الكون كله يسجد لخالقه، ويسبح بحمده، وإن أبى الكافرون، والمشركون أن يسجدوا [بإرادتهم] ويسبحوا بحمده. ولكن لماذا يكفرون بخالقهم، ويشركون به ما لم ينزل به من سلطان؟!

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [37] فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ [38] فصلت

إنه الاستكبار الذي منعهم من السجود لخالقهم!! إن العلاقة وثيقة بين دلائل الوحدانية المشاهدة في الكون، وإقامة الدين على العبودية الخالصة لله عز وجل.

إن توحيد الله القائم على الفهم الواعي لدلائل الوحدانية، وفاعليتها في الكون لا يصل إليه إلا أصحاب القلوب السليمة، ووسائل الإدراك الحية، الذين يؤمنون باستحالة أن يكون لله تعالى شريك في ملكه.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [40] الروم

تدبر قول الله تعالى: "هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ"؟!!

إن انفراد الصانع بخبرته وفهمه لطبيعة وخصائص صنعته أمر بدهي ومنطقي. أما إذا تحدى الصانع أن يكون له شريك في صنعته، ثم لم ينهض أحد لهذا التحدي فذلك دليل على تفرده بصنعته. تدبر قول الله تعالى في سورة المؤمنون:

قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [84]

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [85]

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ [86]

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ [87]

لقد أعلن الله تعالى أنه خالق هذا الكون، بلا ند ولا شريك، ولم يدَّع أحد أنه يملك مع الله تعالى في صفاته العليا، وأسمائه الحسنى، شيئا.

قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ [88]

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ [89]

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [90]

إن تعدد الآلهة يلزم أن يقوم كل إله بمطلق التصرف في الكون لتساويهم في الصفات، فهل هذا هو الواقع المشاهد في هذا الوجود؟!

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ [91]

إن الإرادة الإلهية إرادة فاعلة، ووحدتها الخالقة ظاهرة، ووحدة العلم والحكمة فيها ساطعة، والكون كله يشهد بذلك، وعليه قام منطق التوحيد.

عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [92] المؤمنون

إنها دعوة إلى التنزيه المطلق لله تعالى، بالوقوف على دلائل الوحدانية، من خلال منظومة "الخلق" وإيجاد علاقة التناغم بينها وبين "الآية القرآنية". فكما أن الله تعالى خلق هذا الكون بالحق، على سنن وقوانين ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، فكذلك أنزل "آيته القرآنية" بالحق، وفق سنن وقوانين تعهد الله بحفظها، لتظل حقا إلى يوم الدين.

لذلك كان على هذا الوجود البشري أن يقيم التنزيه المطلق للخالق، الله تعالى اقتداءً بالكون من حوله، فهو سبحانه المستحق لهذا التنزيه من قبل أن يوجد من ينزهه أصلا فله الحمد دوما.

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ [17] وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ [18] الروم

ووسط هذه المنظومة المسبحة، لابد من استحضار الإنسان لمسيرة البداية والنهاية ولمسيرة الإحياء والإماتة المتجددة دوما.

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [19] الروم

إن الناس كانوا موتى فأحياهم الله تعالى بمنهج هدايته، وإن إخراج النبات الحي من أرض ميتة، كخلق الإنسان من تراب، لا فرق بينهما عند الله تعالى فكلها من آياته الدالة على وحدانيته.

إن أول بشر خلقه الله تعالى هو آدم، عليه السلام، خلقه من تراب، ومع ذلك جاء عاقلا مكلفا، وكانت زوجه كذلك، وجاءت ذريتهما كذلك، مزودة بآليات التفكر والتعقل والنظر...، آليات عمل القلب، وهذه الآليات هي التي أهلته للانتشار في الأرض، وأن يكون مختارا في قراره.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ [20] الروم

وبعد أن خلق الله تعالى الإنسان مختارا، يتخذ قراره بإرادته، جعله مسئولا عن اختيار سكنه الزوجي، الذي هو آية من آيات الأنفس.

لقد جعل الله تعالى في التطور الطبيعي لاستبقاء الجنس البشري بالزاوج والتناسل آية من آيات الأنفس. والآية هنا ليست فقط في المتع الحسية وغريزة حب الولد وإنما أيضا في المشاعر النفسية والعواطف الوجدانية التي تقوم عليها آية الزواج.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [21] الروم

إن مجيء "آية الزواج" وسط هذه المنظومة الكونية الساجدة المسبحة، يوحي بأن الله تعالى يريد أن يلفت نظر الأزواج إلى ضرورة معايشة ما في هذه المنظومة من آيات وعطاءات، وعظات، وتوجيهات..، تساعدهم على تفعيل مفهوم "السكن" بمعناه القلبي والفكري، لا بمعناه المادي الدنيوي، حتى يفوزوا بمودة الله تعالى ورحمته.

إننا يجب أن نتدبر الآية بفهم واع لمقاصدها العليا، الدالة على عظمة القدرة الإلهية وما تحمله من دروس على أعلى مستوى تربوي يمكن أن يتخيله الإنسان. إن معايشة أفراد السكن الزوجي لهذه الآيات الكونية تدعم وترسخ دلائل الوحدانية في قلوبهم. إنه أمر بوجوب محافظة المسلم على تفاعله مع هذه المنظومة المسبحة وعدم الغفلة عن التفكر والتأمل والنظر فيما تحمله من آيات الآفاق والأنفس لينعم بالمودة والرحمة في سكنه الزوجي.

إن الإنسان جسد ونفس وروح، جسد تحكمه شهوات الدنيا، ونفس وروح يتطلعان إلى السمو به إلى مرضاة ربه. لذلك دعا القرآن الناس إلى التفكير في أمر الزواج بوصفه آية من آيات هذه المنظومة الكونية الدالة على خالقها وعلى علو قدر ومكانة هذا الإنسان بين المخلوقات، وعلى وجوب أن تحكم مشاعر وأحاسيس الزوجين رغبات وتوجهات فكرية مشتركة، حتى تكتمل فاعلية آية الزواج. ثم انتشرت ذرية آدم في الأرض، وسكنت المناطق المتباعدة، مختلفة المناخ والثروات واختلفت الألسن والألوان وهم جميعاً من أصل واحد، آدم عليه السلام.

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ [22] الروم

نعم.. "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ"، فلن يخشع لهذه الآيات إلا العلماء، هؤلاء الذين دخلوا منظومة العبودية من باب التوحيد الخالص لله عز وجل.

وكما أن أصل هذا الوجود البشري من نفس واحدة، آدم عليه السلام، ومن ماء واحد ومع هذا اختلفت الألسن والألوان، والطباع والشخصيات..، وكذلك في الزرع تُسقى البذرة بماء واحد، فتخرج لنا ما لا يحصى من الثمار مختلفة الألوان والصور والطعوم والروائح.

وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [4] الرعد

نعم.. "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"، يعقلون أنها منظومة كونية محكمة.

ومن آية خلق السماوات والأرض خرجت آية الليل والنهار، وفي الليل "آية النوم" وفي النهار "آية المعاش"، وابتغاء فضل الله، فهل يعيش الزوجان هذه الآيات في حياتهما اليومية؟!

إن غفلة الإنسان عن آية النوم، وما فيها من نعم لا تحصى، نتيجة الإلف والعادة تجعله لا يقف على ما في هذه الآية من دلالات على عظمة الله وقدرته، وفاعلية أسمائه الحسنى. فهل يستطيع أحد أن يتحدى "آية النوم" إلا إذا كان يملك مجموعة من الأعصاب الصناعية؟!

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ [23] الروم

نعم.. "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ"، يسمعون كلام الله بقلوبهم، لا بآذانهم فقط فيدركون ما به من آيات.

لقد ربط الله تعالى بين هذه النعمة الظاهرة وبين ما وراءها من نعم باطنة فبين أن العبرة ليست في حاسة السمع ذاتها، وإنما في أن يعقل الإنسان ما يسمع، فبدون آليات عمل القلب..، لن يستطيع الإنسان الوقوف على دقائق صنع الله تعالى في الآفاق والأنفس.

إن حاستي السمع والبصر لو توقفتا معا لواجه النائم مشكلات عديدة، فمن رحمة الله بالناس أن جعل حاسة السمع تعمل دون إرادة منهم، ليستطيع الإنسان أن يستيقظ فور سماعه صوتا ينذره بالخطر.

إن "آية المعاش"، وابتغاء فضل الله، والضرب في الأرض، وقضاء حاجات الإنسان..، جاءت بعد "آية النوم"، أي بعد أن عادت الأعصاب إلى وضعها الطبيعي فيستطيع الإنسان أن يستكمل مسيرة حياته.

ومع الترغيب يأتي الترهيب، فبعد آيات السكن الزوجي والعصبي، تأتي "آية البرق" وما يتركه في نفوس الناس من خوف بإنزال عقاب، أو من خير بإنزال مطر يحيي به الله الأرض بعد موتها.

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [24] الروم

نعم.. "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ". إن تعقل وتدبر ما تحمله هذه الآية من مسائل علمية، تتعلق بظاهرة البرق، وتكوين السحاب، وعملية إنبات الزرع بعد نزول المطر..، يضع القلب السليم بين حالتي الوعد والوعيد، الرجاء والخوف، الترغيب والترهيب.

إن هذه المنظومة الكونية المتوازنة المحكمة، التي خلقها الله من أجل سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، ترجع إلى الآية الكبرى الأولى، آية خلق السماوات والأرض، هذه الآية التي ستفقد فاعليتها بأمر من الله تعالى، ثم إذا بهذا الوجود البشري كله يخرج إلى عالم آخر، عالم الآخرة، حيث الحساب والجزاء.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ [25] وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ [26] الروم

نعم.. إنه "أمر الله" الذي قامت به السماوات والأرض.

إنك ستخرج من الأرض مُجبراً ومسرعاً، كما يفيد حرف المفاجأة في قوله تعالى:

"إِذَا دَعَاكُمْ" . "إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ"

هل تعلم لماذا؟! لأن ذرات جسدك منذ أن خلقها الله تعالى وهي على حالتها من التسبيح والقنوت لله تعالى، وهي الآن تستجيب لدعوته بعد أن انتهت مهمتها في الدنيا ويتحرك الوجود كله إلى خالقه مُسَيّراً: "كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ".

فإذا كنت قد آمنت أن لهذا الكون إلهاً واحداً، له الأسماء الحسنى، والصفات العُلى وقد قام هذا الوجود بأمره، فهل من المنطق أن تقبل منه صنعته الأولى ولا تقبل منه إمكانية إعادتها مرة أخرى؟!

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [27] الروم

تدبر قوله تعالى: "وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى". إن كل ما كشف عنه العلماء وما سيكتشفونه من بديع صنع الله ما هو إلا عناصر مكونة لهذا الكون أما كيف تترابط هذه العناصر..، ومَنْ وراء إحكام منظومتها المتوازنة..، وما هي آليات عملها..، فكل ذلك من أسرار الصنعة التي تفرد الله تعالى بعلمها.

إن كل ما سبق من دلائل الوحدانية يصب في محور واحد هو: دعوة الناس إلى إقامة التوحيد الخالص لله تعالى، وإبطال الشرك.

ويضرب الله تعالى المثل لبيان ذلك بسؤال تقريري: هل يوجد سيد يرضى أن يشاركه مملوكه في أمواله؟!

وإذا كان ذلك مستحيلا، فكيف يجوز أن يكون المخلوق شريكا للخالق في حكمه؟!

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [28] الروم

لذلك عقب بقوله تعالى: "كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"، لبيان أن هذه الآيات البيّنات لا ينتفع بها إلا من كان التعقل من مقومات شخصيته فيدرك خطورة أن ينسب المخلوق إلى الخالق عز وجل، شيئا لم ينزل به من سلطان متبعا في ذلك هواه!!

إن أعظم الظلم اتباع الهوى الموصل إلى انتفاء الهدى

بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [29] الروم

ثم تدبر هذه العلاقة الوثيقة، بين كل ما سبق من تأسيس لقواعد وأصول التوحيد الخالص، لله عز وجل، وبين ما يجب أن يكون عليه حال المسلمين، أتباع الرسول الخاتم محمد، عليه السلام، من تفعيل لهذا التوحيد الخالص.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ [30] الروم

فإذا علمتم أيها المسلمون أحوال المعرضين عن دلائل الوحدانية، فأقيموا أنتم دوما وجوهكم للدين القيم، دين الفطرة، فطرة التوحيد التي خلق الله تعالى الناس عليها. لذلك حذرهم الله تعالى من أن يحذوا حذو المشركين فيتفرقوا في الدين!!

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ [31] الروم

إن الخطاب لرسول الله، وللمؤمنين به وبرسالته إلى يوم الدين. فلماذا خاطبهم الله تعالى بهذا التحذير بالذات: "وَلا تَكُونُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ"، وهم الجيل الأول من المؤمنين؟!! كي يحذروا أن يقعوا فيما وقع فيه أتباع الرسل السابقين من الاختلاف والتفرق والتخاصم، فيلعن بعضهم بعضا، ويذيق بعضهم بأس بعض، وكل حزب بما لديهم فرحون!!

مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [32] الروم

إن التحذير من التفرق في الدين، جاء بعد بيان منظومة "الخلق" المسبح دوما لخالقه، وهذا دليل على أن الدين الإسلامي، الذي ارتضاه الله للعالمين، يقوم على التناغم الحي بين الـ "الآية القرآنية"، وبين هذه المنظومة المسبحة، والذي لا يمكن تفعيله إلا إذا قام به المسلمون، أمة واحدة.

فهل قام المسلمون، بتفعيل "الآية القرآنية" بين الناس، أمة واحدة، أم اختلفوا وتفرقوا في الدين؟! وهل يمكن أن يكون "التفرق في الدين"، الذي يسعد به اليوم أصحاب منابر الدعوة الإسلامية المختلفة، عقابا إلهيا؟!

هل يمكن أن يكون "التفرق في الدين" نوعا من العذاب، بسبب هجر أتباع الرسول الخاتم، "آيته القرآنية"، المعاصرة لهم، واتباعهم تراث سلفهم ومروياتهم البشرية؟!!

نعم.. إنه نوع من العذاب الإلهي. فقد بيّن الله تعالى في كتابه الحكيم مخاطباً المشركين، أن من أنواع العذاب الذي ينزله بالأمم، عذاب "التفرق"، لأن الناس عندما يتفرقون إلى شيع وأحزاب متصارعة، تختلط أمورهم، وتضطرب شؤونهم، ويقتل بعضهم بعضا..، فيزول الأمن ويعم الفساد، فلا يرجى بعده أن يعودوا أمة واحدة.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ [65] الأنعام

تدبر قوله تعالى: "انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ".

نعم.. لأنه إذا كان التفرق إلى شيع وأحزاب متصارعة، مصيبة تحل بالأمم فإن "التفرق في الدين" هو المصيبة الكبرى، التي حلت بأمة رسول الله محمد عليه السلام على الرغم من تحذير الله لها مخاطبا شخص هذا الرسول الكريم.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [159] الأنعام

نعم.. لأنه إذا كان الناس جميعا لا يفقهون مصيبة "التفرق في الدين" فإن أتباع رسول الله الخاتم، عليه السلام، قد تحملوا مسئولية الشهادة على هؤلاء الناس، فكيف يقيمون هذه الشهادة وهم قد وقعوا فيما وقع فيه الناس، فتفرقوا شيعا وأحزابا، كل حزب بما لديهم فرحون؟!!

لذلك يستحيل أن يأمر الله تعالى رسوله محمدا، أن يتبرأ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، بقوله تعالى: "لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ"، ثم يرضى لأمته أن يتفرقوا في الدين، بدعوى أن الخطاب هنا للمشركين، الذين لا يحل لهم التفرق في الدين، أما أمة الرسول الخاتم فيحل لها أن تتفرق إلى جماعات وأحزاب كل حزب بما لديهم من مصادر "السنة النبوية" المختلفة فرحون؟!

إن من رحمة الله تعالى بالناس أن جعل كتابه وشريعته الخاتمة "آية قرآنية" تدركها القلوب السليمة يستطيع أي عاقل أن يدخل في الإسلام بمجرد الإيمان بها، وبما حملته من شريعة في أي زمان، وفي أي مكان، فهي حجة الله على العالمين، إلى يوم الدين.

إنها النعمة الكبرى، فهل شكر المسلمون ربهم على هذه النعمة، فاعتصموا بالآية القرآنية، وأقاموا عليها نظام ومنهج حياتهم، أمة واحدة، ليكونوا شهداء على الناس كما كان الرسول شهيدا على قومه؟!

لقد هجر المسلمون كتاب ربهم، وتمسكوا بكتب وتراث مذاهبهم المتصارعة فاستحقوا هذا النوع من العذاب، عذاب "التفرق في الدين"، الذي استحقه أتباع الرسل السابقين!!

ولا ننسى أنّ حديثنا عن "التفرق في الدين" جاء في إطار بيان السياق القرآني للعلاقة الوثيقة بين "التوحيد"، القائم على الفهم الواعي لدلائل الوحدانية والتي بيّنها سياق سورة الروم، وبين التحذير من التفرق، الذي جاءت به الآية [32] من هذا السياق، وعلاقته بقوله تعالى:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً .." [143] البقرة

فهل يمكن أن يقيم المسلمون شهادتهم على الناس وهم متفرقون، متخاصمون متقاتلون؟! هل هناك عاقل يشك في أن الضنك الذي حل بمعيشة معظم المسلمين، هو ثمرة عذاب "التفرق في الدين"، وهجرهم لـ "الآية القرآنية"؟!

إن هذه "الآية القرآنية"، المتناغمة هذه المنظومة الكونية، منظومة "الخلق" الدالة على الوحدانية....، تدعوهم ليل نهار، أن يكونوا أمة واحدة. انظر السياق القرآني، من سورة آل عمران، الذي جاءت فيه هذه الدعوة، وتدبر بماذا بدأ:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [102] وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [103]

وفيها تحريض على تمام التقوى، والنهي عن الموت على غير الإسلام، لذلك أمرهم بالاستمساك بحبل الله جميعا، وعدم التفرق في الدين. فتدبر قوله تعالى: "جَمِيعاً"، والذي يبين أن المقصود الأمر باعتصام الأمة كلها، لذلك قال: "ولا تفرقوا" لتأكيد مضمون الاعتصام. ثم تدبر كيف امتن الله عليهم بتغيير أحوالهم [بالإسلام] من التفرق والعداوة والتقاتل، والإشراف على المهلكات..، إلى حالة الأخوة، وأمرهم أن يتحملوا مسئولية الدعوة.

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ [104]

فأية فرقة من فرق الأمة الإسلامية هي الآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر، وقد حذرهم الله تعالى أصلا أن يتفرقوا، أو يختلفوا، كما فعل اليهود والنصارى، من بعد ما جاءهم من الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق!!

وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [105]

ونلاحظ تقديم "الافتراق" على "الاختلاف" لبيان أن الاختلاف علة التفرق. والاختلاف المذموم هو الاختلاف في أصول الدين المفضي إلى التكفير. إن الاختلاف المذموم هو الذي يؤدي إلى الافتراق والتخاصم المذهبي، وهو الأمر الحاصل بين العلماء والدعاة أتباع هذه الفرق، الذين اختلفوا في العقائد والأصول، كما اختلفوا في فروع الشريعة.... وتاريخ "المذهبية" خير شاهد.

وتدبر قوله تعالى: "مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ". فهل هناك بعد "الآية القرآنية" وتفاعلها مع "دلائل الوحدانية"، من بيّنات كان يجب أن تكون عاصمة للمسلمين من الوقوع في عذاب التفرق والاختلاف؟!

ثم انظر كيف ينتقل بنا السياق ليتحدث عن الجزاء الأخروي:

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ [106]

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [107]

إن الله تعالى لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون. إن الله تعالى يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، يريد صلاح حالهم، فلا حاجة له بإضرارهم، إلا للجزاء على أفعالهم.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ [108] وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ [109]

ولقد اختار الله تعالى أمة رسوله الخاتم محمد، عليه السلام، لتكون خير الأمم، إن هي أخذت بأسباب هذه الخيرية ووسائلها، فإن لم تأخذ أضاعتها.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ [110] آل عمران

فهل اجتمع المسلمون حول "الآية القرآنية" التي كانت سببا في تفضيلهم على سائر الأمم، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، أم هجروها فضاعت خيريتهم؟!

منظومة "التدبير"

لقد خلق الله تعالى الكون، آفاقا وأنفسا، ووسم كل مخلوق باسمه الذي يُعرف به وخلق الإنسان بوسائل إدراك تحقق مهمة استخلافه في الأرض، وتمكنه من تعلم العلوم والمعارف كافة، على خير وجه، وجعله مختارا، يأخذ قراره بإرادته وعلى مسئوليته. ولقد شاءت إرادة الله أن يعيش هذا الإنسان وسط منظومة من الآيات الكونية تحمل دلائل الوحدانية المتناغمة مع فطرته، فطرة التوحيد، ومع رسالاته الهادية إلى صراطه المستقيم.

ولقد بين القرآن الكريم أن الإله المعبود إله واحد، لا شريك له في ملكه، ولا شريك له في حكمه، خلق هذا الوجود بما يحقق مصالح الناس ومنافعهم ولَفَتَ أنظارهم إلى وجوب التفكر في بديع صنعه، وعظيم آياته، وتعقل نظام وآليات عملها، والبحث في أسرارها للوقوف على ما وراء ذلك من تدبير محكم يشهد بفاعلية أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا.

فالله تعالى يدعو العلماء إلى النظر في الكون من خلال "علم الكيفية"، هذا العلم الذي له آفاق واسعة يصعب حصرها مهما كتب فيه من كتب ومجلدات.

لذلك سأكتفي بذكر بعض الآيات التي أشارت إلى هذا العلم، وكيف أن الاهتمام به سيلقي الضوء على مزيد من دلائل الوحدانية.

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً [45] ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً [46] الفرقان

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [19]

قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [20] العنكبوت

إن القلب السليم، والفطرة النقية، يرفضان أن تكون المصادفة وراء هذا النظام المحكم بإبداعه، وتقديره، وتدبيره. إن آليات عمل القلب السليم ترفض أن يخلق العدم شيئا فالإنسان كان قبل أن يُخلق عدما، إذن فمن الذي خلقه من عدم؟!

إن هذا المخلوق من عدم، خلقه الله تعالى من تراب، ليكون آية دالة على قدرته وبديع صنعه، وفاعلية أسمائه الحسنى، في هذا الوجود البشري.

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ [48] الروم

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ [6] وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [7] تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ [8] ق

إنه لا مفر لمن ينظر في الكون بعين البصيرة من الاعتراف بألوهية الله وربوبيته لهذا الكون. فهل ادعى أحد أنه يملك مع الله تعالى مفاتيح تدبير وتقدير وتصريف أمور هذا الكون؟! هل المصادفة هي التي خلقت ورزقت ودبّرت وقدّرت..؟!

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً [15] وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً [16] نوح

قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [27] سبأ

إن السؤال ليس عن مجرد مشاهدة بصرية، ورؤية حسية، لهذه المخلوقات وإنما عن مشاهدة علمية لكيفية الخلق، ومنطقية لإقامة الدليل على الوحدانية.

أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ [17]

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ [18]

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ [19]

وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ [20]

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ [21] الغاشية

تدبر قول الله تعالى: "وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ"، وعلاقته بقوله تعالى:

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ [2] الرعد

فهل هناك عمد يقوم عليها الكون، تشد بناءه، لا ترى بالعين المجردة وسيكشف عنها العلم مستقبلا؟! وهل هناك علاقة بين هذه العمد وأوتاد الجبال المنصوبة؟!

إن الدعوة إلى النظر والبحث في هذا العلم، دعوة إلى منظومة علمية عالمية تقوم على الفهم الواعي لكيفية عمل السنن الكونية في هذا الوجود. لذلك فإن "علم الكيفية" علمٌ يحمله هؤلاء الذين أمرهم الله تعالى أن يكونوا "شهداء على الناس"، الذين يتفاعلون مع "الآية القرآنية" حسب مقتضيات عصرهم وتحدياته وإمكاناته العلمية والمعرفية. هؤلاء الذين يقرؤون نصوص "الآية القرآنية" بآليات عمل قلوبهم لا بآليات عمل قلوب أسلافهم.

لقد خلق الله تعالى الإنسان ومعه مقومات حياته، وآليات وأدوات خلافته في الأرض وجعل كل ما في الأرض لمنفعته وخدمته..، وما الإنسان إلا ذرة في هذا الوجود الهائل وفي هذا البناء البديع، الدال بذاته على خالقه ومبدعه، الله عز وجل. فهل فكّر الإنسان الذي كرمه الله تعالى كل هذا التكريم وفضله على سائر خلقه، أن يتعرف على الله، من خلال دلائل وحدانيته، وعلى شريعته التي أنزلها على رسله لهدايته إلى صراط ربه المستقيم، وكيف يقيم البرهان على ذلك؟!!

إن تفعيل آليات التفكر، والتعقل، والنظر..، آليات عمل القلب، يقود الإنسان إلى دلائل الوحدانية الموجبة للعلم بأنه "لا إله إلا الله"، وأن القرآن هو كلام الله وآيته القرآنية وأن محمدا، عليه السلام، هو الرسول المبلغ عن الله هذه الآية.

لذلك فإن الإنسان الذي يعطل آليات عمل قلبه، ينحدر إلى مرتبة أدنى من مرتبة الأنعام، فللأنعام هداية، ونظام خاص مودع فيها يجعلها تقوم بوظيفتها على خير وجه.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ [179] الأعراف

ثم تدبر قول الله تعالى:

وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [180] الأعراف

إن هذا الإنسان الذي يريد أن ينازع الله في ملكه، قد خلقه الله وفق أطوار لا سلطان له عليها، وفي كل طور منها آيات تدل على أنه عز وجل خالقها ومبدعها. والدراسات المستفيضة المعاصرة عن أطوار خلق الإنسان، وأبحاث علم الأجنة كثيرة يمكن الرجوع إليها على شبكة الإنترنت.

إن الاعتراف بربوبية الله عز وجل يستلزم الاعتراف بألوهيته، فالله تعالى الذي خلق هو الذي هدى وشرع. ولقد كانت قضية المشركين أنهم لا يقرون لله تعالى وحده بالألوهية، فهم يشركون معه آلهة أخرى، وإن أقروا له سبحانه بالربوبية.

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ [9] الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [10] وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [11] الزخرف

ويقيم الله تعالى الحجة على المكذبين المشركين، من خلال منهج الاستدلال العقلي لبيان العلاقة بين الألوهية والربوبية، والتي قامت عليه حجية "الآية القرآنية"، كآية لا تنفصل عن الآيات الدالة على الوحدانية، ولا عن صدق الرسول الذي حملها للناس.

أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنْ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ [21] لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ [22] لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ [23] أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ [24] الأنبياء

نعم.. "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ". إن الكون وما فيه ملك لله تعالى، مسخر بأمره وتدبيره وحكمته، وإرادة الله تعالى نافذة بكلمة "كن"، فكيف يكون في حاجة إلى معونة ولد أو صاحبة؟!

لذلك يربط الله تعالى دائما بين دلائل الوحدانية، وحجية "الآية القرآنية" لعل القلوب الغافلة تستيقظ من غفلتها.

الم [1] تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [2] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ [3] السجدة

فكيف يقولون "افْتَرَاهُ" وهو منزل من "رب" العالمين، الرب الذي يقرون بربوبيته لهذا الكون؟! إن إقرارهم بهذه "الربوبية" يشهد باستحالة أن يتقول الرسول على "ربه" بعض الأقاويل، فلا يرتاب صاحب فطرة نقية، وقلب سليم في أن هذه "الآية القرآنية" من الله رب العالمين خالق السموات والأرض. لذلك عقب بقوله تعالى:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ [4] السجدة

إن علينا أن نتابع فهم هذه الآيات في إطار السياق الذي جاءت فيه، وهو الدفاع عن حجية "الآية القرآنية"، الذي بدأت به السورة، وبيان أن "الرب" الذي خلق هو "الإله" الذي هدى وأنزل هذه "الآية القرآنية".

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [3] يونس

تدبر قوله تعالى: "إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ"، ثم قوله: "الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ".

لذلك كان مناسبا أن يأتي الحديث بعد ذلك ببيان مزيد من دلائل الوحدانية تتعلق بإتقان الصنعة، وكمال العلم..، إلى آخر الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، التي عمت الوجود كله.

يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ [5] ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [6] السجدة

وفي إطار منظومة "التدبير" المتقن، والتقدير المحكم، يقص الله علينا قصة خلق الإنسان من طين، في سياق بيان إحسان خلق كل شيء في هذا الوجود.

إن خلق الإنسان من طين آية من آيات الله الكبرى، لقد خلقه، وجعل نسله من ماء مهين، ثم سواه وفق أطوار متتابعة.

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ [7] ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ [8] ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ [9] السجدة

إن في خلق الإنسان من ماء مهين آيات..، وفي تكوُّن هذا الماء المهين من غذاء الإنسان آيات..، وفي استقبال المرأة لهذا الماء آيات..، وفي اجتماع الماء مع بويضة المرأة آيات..، وفي تحول النطفة السائلة إلى دم متجمد يتعلق بجدار الرحم آيات وفي حصول النطفة على غذائها من جدار هذا الرحم آيات وفي عملية تكون الهيكل العظمي وكسوته باللحم آيات..، بل وفي الارتقاء بهذه النطفة إلى منزلة التعقل والتفكر والتدبر والتأمل والنظر..، آيات وآيات.

أفلا تدل هذه الآيات الكونية على أن خالقها هو منزل "الآية القرآنية"؟!

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ [12]

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [13]

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [14]

ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ [15] ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ [16] المؤمنون

وهنا لابد أن نشير إلى الفرق بين "الخلق" و"الجعل":

إن الخلق إيجاد من عدم، أما الجعل فهو حالة تهيئة المخلوق ليؤدي وظيفته التي خلقه الله من أجلها، وفق تدبيره عز وجل وحكمته.

لقد خلق الله تعالى السموات والأرض وما بينهما، ثم جعل الشمس والقمر يؤديان الوظيفة التي خلقا من أجلها، فجاء النور وجاءت الظلمة، ثمرة هذا الجعل.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ [1] الأنعام

لقد جعل الله تعالى الشمس ضياء لينتفع الناس بها في حياتهم وأعمالهم. وجعل القمر نورا ليناسب سكون الليل ويخفف من ظلمته، ولو جعل الله الشمس مشرقة دوما لاختلت حياة الناس، وما كان هناك ظلام يسكنون فيه. كما جعل الله القمر مراتب في ظهوره واختفائه، ليتخذ الناس من ذلك نظاما حسابيا قمريا يعرفون به الليالي والشهور والسنين.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [5]

إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ [6] يونس

لذلك فإن الذين يجعلون نهارهم ليلا، وليلهم نهارا، هؤلاء لن يفيدوا من آية التدبير الإلهي، التي أقام الله تعالى عليها هذا الكون ليقوم الناس بأعمالهم على خير وجه.

فإذا نظرنا إلى آية من آيات الأنفس، وجدنا الفرق بين "الخلق" و"الجعل" في منظومة التدبير الإلهي، واضحا وجليا.

لقد كشف العلم بتقنياته الحديثة عن أن جهاز السمع يتكون في الجنين وهو في بطن أمه، وعندما يقوم بوظيفته يسمع الأصوات قبل أن يولد المولود في حين أن جهازه البصري لا يقوم بوظيفته إلا بعد أن يولد.

فهل من أجل ذلك قدم الله السمع على الإبصار؟!

وإذا كان الإنسان قد استطاع اليوم أن يكشف عن نوع الجنين وهو في بطن أمه ومتى ستضع حملها، وهل ستضعه حيا أم ميتا..، فقد سبق علم الله علم البشر جميعا.

إنه العلم المطلق، والتدبير المحكم، الذي تفرد به الله تعالى.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [11] فاطر

لقد جاء القرآن الحكيم بكلمات تصور مراحل من خلق الإنسان لم يكن المسلمون في عصر التنزيل يعرفون مدلولاتها العلمية، ولا كيفية تكوينها في الأرحام.

لقد أخبر القرآن أن الإنسان خلق من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، فآمنوا وصدقوا كلام الله، وشهد الله تعالى لهم بصدق إيمانهم وحسن تقواهم، من قبل أن يُعرف علم الأجنة، ومن قبل أن توجد تقنياته العلمية الحديثة.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ [6] الزمر

فهل وصل العرب قبل عصر الرسالة إلى معارف علمية عن مكونات جسم الإنسان وأطوار نموه، منذ أن كان جنينا في رحم أمه في ظلمات ثلاث؟!

لقد آمن المسلمون الأُول بما احتواه كتاب الله تعالى من إشارات علمية بأدوات فهم قامت على لسانهم العربي وخيالهم الخصب، وإمكانياتهم المعرفية وثقافاتهم العلمية التي نقلتها لهم "منظومة التواصل المعرفي". تدبر قوله تعالى في سورة غافر:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [67] هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [68]

لقد خرج الإنسان إلى الدنيا، ولم يكن شيئاً مذكورا، تحكمه قوانين تختلف تماما عما كانت عليه وهو في رحم أمه، ألم يفهم العرب أن ذلك دليل على قدرة الله على بعث الإنسان بعد موته وأنه سبحانه يستحيل أن يخرجه إلى هذه الدنيا ثم يتركه سدى؟

أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى [36]

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى [37] ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى [38] فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى [39]

أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى [40] القيامة

إن الاكتشافات التي ساعدت عليها التقنيات الحديثة المتطورة، والتي جاءت مبينة لبعض الإشارات العلمية في القرآن الكريم، هي في حقيقتها مصابيح على طريق الهدى تكشف للناس مزيدا من دلائل الوحدانية يوما بعد يوم.

وسواء كانت المعارف العلمية في عصر الرسالة قد وصلت إلى مرحلة تمكن العرب من فهم أطوار خلق الإنسان، أم لم تكن كذلك، فقد آمن المسلمون بأن الله تعالى هو الذي خلق الجنين في رحم أمه، في ظروف حياتية لها قوانينها الخاصة تعمل وفق تدبيره وحكمته، عبر مراحل متطورة، بصرف النظر عن تأييد الاكتشافات العلمية لها، فستظل الشمس تشرق من مشرقها.

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ [20]

فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [21] إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ [22]

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ [23]

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [24] المرسلات

ألم ينظروا إلى الطفل الوليد وهو يسرع إلى ثدي أمه ليحصل على طعامه بمهارة عجيبة تذهل القلوب؟! فمن الذي علمه هذه الكيفية وتوقيتها وألهمه التوقف عند الشبع؟ ولقد ورد قوله تعالى: "وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ" في هذه السورة عشر مرات لتختم بقوله:

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ [50] المرسلات

ألم ينظروا إلى "آية النوم"، وهي آية يلمسها كل إنسان، وكيف أنها مثال لآية الموت وآية البعث، ولكن بصورة مبسطة واقعية، يدركها ويشاهدها كل من لم تُغيّب الغفلة آليات عمل قلبه!! تدبر قوله تعالى في سورة الزمر:

اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [42]

إن الإنسان تحت قهر النوم، يخرج من عالم الحياة إلى عالم الوفاة، مرة كل يوم على الأقل، سواء كانت الوفاة مؤقتة أو دائمة.

فإذا أعاده الله إلى الدنيا واستيقظ من نومه، فقد أعطاه الله فرصة أخرى ليقيم نفسه على صراط ربه المستقيم. ومع ذلك يعود هذا الإنسان، ويتخذ مع الله تعالى شركاء؟!

إن هذا الإنسان المقهور في الحالتين: في نومه، ووفاته، لا يرى الملائكة وهم ينفذون أمر الله في الحالتين، ولا يتركون أحدا قد استوفى أجله، مهما علا شأنه، فهل نازع الله تعالى في ذلك أحد؟!

إن انبهار المسلمين بالصيحات التي تكشف من وقت لآخر عن وجه من وجوه الإعجاز العلمي في القرآن [لكوني أو اللغوي أو العددي] أمر يجب العمل على ترشيده حتى لا ينشغل المسلمون بالفرع عن الأصل، وبالمخلوق عن الخالق.

إن المكتشفات العلمية في حقيقتها اكتشاف لموجود لم يتوفر للأجيال السابقة إمكانات كشفه، وإظهاره للناس. فإذا جاء العلم وكشف عن موجود خلقه الله تعالى فالعبرة ليست في اكتشافه وإنما في آية خلقه وإيجاده أصلا.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ [5] الحج

لقد فهم العرب القرآن الكريم بثقافتهم وإمكاناتهم المعرفية، فهموا حركة الشمس فهما ظاهريا، إنهم يرونها تتحرك من المشرق إلى المغرب ثم تغيب عن أعينهم.

بل لقد فهم بعضهم أنها تذهب لتستريح جهة المغرب ثم تعيد كرتها مرة أخرى من المشرق، والله تعالى يقول:

وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ [37] وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [38] يس

ونحن اليوم نفهم آيات الآفاق والأنفس فهما علميا بتقنيات العلوم المتطورة التي ساعدت على كشف مزيد من دلائل الوحدانية.

انظر إلى حركة المجموعة الشمسية، وما فيها من آيات تم اكتشافها في العصر الحديث. وكذلك ما في حركة دوران الأرض حول الشمس، وما في تصريف السحب وإحياء الأرض بعد موتها من آيات.

إن الشمس تسير بسرعة هائلة مع مجموعتها الشمسية حول مركز مجرتها في الفضاء الكوني. والقمر في منازله آية من الدقة المتناهية وعلى أساسها أقام الناس نظمهم الحسابية.

وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [39] لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [40] يس

أفلا يدل هذا التدبير المحكم على أن الله هو منزل هذه "الآية القرآنية"؟!

لقد جاءت الإشارات العلمية كوسيلة للوصول إلى دلائل الوحدانية لهداية الناس إلى صراط ربهم المستقيم. إنها ليست هدفا في حد ذاتها، لذلك فإن على الذين يزعمون أنهم يمكنهم أن يخلقوا شيئا، من أصحاب دعوات نظرية الاستنساخ الحيواني أو البشرى عليهم ألاَّ يستعينوا في معاملهم وتجاربهم بأي مادة خلقها الله تعالى في هذا الوجود وأن يلجئوا إلى استخدام مواد من صنعهم هم، ليثبتوا بذلك قدرتهم على الخلق والإيجاد من عدم، لو كانوا صادقين.

إن من صفات الكمال والجلال لله عز وجل، عموم العلم بعالمي الغيب والشهادة وكمال القدرة والتصوير، كيف يشاء. إن هيمنة الله تعالى على الكون، وتصريفه وتدبير أموره..، يستلزم ألا يخفى عليه شيء في ملكه، ظاهرا كان أو خفيا، ليلا كان أو نهارا فنحن ندعو إلها عالما بأحوالنا..، فلماذا القلق إذن والحيرة؟!

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ [59] الأنعام

إن سعة علم الله وقدرته مطلقة، وكلما نظرت وتدبرت ما يسفر عنه "علم الكيفية" تعجبت من كفر الكافرين، وإعراض الضالين، وغفلة العصاة المذنبين!!

إن علم الأجنة مع تقدمه ومع ما وصل إليه من نتائج أذهلت البشرية لم ولن يصل إلى ما تفرد الخالق بعلمه وصنعه. إن طفل الأنابيب قد تَكَوَّن أصلا من مني الرجل وبويضة الأنثى، وهما من صنع الله عز وجل. إن التحدي الحقيقي هو أن يخلق العلماء منيا وبويضة، أو أن يخلقوا خلية حية بعيدا عن خلق الله تعالى!!

إن العلماء مهما حققوا من اكتشافات فإن جهدهم في الأصل قائم على عناصر هي من بديع صنع الله تعالى وتدبيره، وتقديره، وما الإشارات العلمية في القرآن الحكيم إلا لتلفت النظر إلى هذه الحقيقة.

لقد سمى الله تعالى بداية خلق الإنسان "ضعفا"، وهذا الضعف يكمن في الخلية الصغيرة الواهنة التي لو قذفها الإنسان خارج رحم المرأة لفسدت ولم تصبح لها فائدة. فإذا استقرت مع البويضة، وتكون الجنين، وخرج إلى الحياة فإنه يمر بأطوار الطفولة والشباب، ثم بلوغ الأَشُدَّ، فالشيخوخة، ثم ينحدر إلى مرحلة الضعف مرة أخرى.

إن في هذه الأطوار آيات تخضع للمشاهدة الدائمة، لا تغيب عن أحد من العالمين. إنها في أنفسنا. إنه التدبير المحكم لمراحل خلق الإنسان وتطور حياته.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ [54] الروم

تدبر قوله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ".

إن النظر الصحيح، والتفكير المنطقي يشهدان بأن الرب الذي خلق ودبر وقدر وأحكم..، هو نفسه الإله الذي أمر ألا يعبد إلا إياه، ولا يشرك في حكمه أحدا.

لقد وضع الله في الكون مقادير كل شيء، بتدبير وحكمة، ووفق علم إلهي مطلق وهدى كل مخلوق إلى كيفية أداء مهمته التي خُلق من أجلها، فالقضية ليست قضية خلق وإيجاد من عدم فحسب، وإنما هي حكمة، وتدبير، وتقدير وعلم..، إلهي.

تدبر هذه المنظومة الإيمانية من سورة الأعلى:

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى [1] الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى [2] وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى [3] وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى [4] فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى [5]

ثم تدبر العلاقة الوثيقة بين وجوب التنزيه المطلق لله عز وجل، والأسباب الداعية إلى ذلك، وبين الحديث عن وجوب حفظ الوحي الإلهي، الذي جاءت به الآية التالية:

سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى [6]

ويربط الله تعالى بين "التقوى" والوقوف على دلائل الوحدانية، فيقول تعالى:

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ [31]

فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ [32] يونس

تدبر قوله تعالى: "أَفَلا تَتَّقُونَ"، ثم قوله بعدها: "فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ"، ثم بيان أن أصول الدين الإلهي [ملة وشريعة] لا تقوم إلا على الحق المطلق، لا مكان فيها للظن ولا لغلبة الظن مطلقا، فقال تعالى: "فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ"؟!

لذلك فإن القضية ليست في الإيمان بأن الله تعالى هو الخالق، الرازق، المدبر فالمشركون لم يجدوا حرجا في الاعتراف بهذا، وكيف لا، وأمامهم البراهين الساطعة الدالة على تفرده عز وجل بالربوبية!!

ولكن لماذا لا يفقهون أن إيمانهم بصفات "الرب": الخالق، الرازق... يستلزم أيضا إيمانهم بصفاته كـ "إله": لا يعبد إلا هو، ولا يُحتكم إلا لشريعته، فرب الناس هو إله الناس؟!

وتستمر عطاءات "الآية القرآنية"، ويبين الله تعالى مزيدا من دلائل الوحدانية ويبدؤها بمسألة منطقية تستلزم استحالة أن يقبل الله الذي تفرد بهذه الأسماء الحسنى وهذه الصفات العُلى، أن يكون له شريك في ملكه، أو في حكمه، ولو كان نبياً رسولا.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ [94] الأنعام

إنه الله الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يشرك في حكمه أحدا..، وهو "الرب" الذي خلق ودبر، وقدر..، ومن تدبيره عز وجل:

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنْ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [95] الأنعام

إن آية الزرع، وما في عملية الإنبات من تدبير محكم، منذ أن كان حبا أو نوى فشجرا، فثمرا، مختلفا ألوانه ومذاقه وأشكاله..، ما هي إلا قطرة في بحر آيات الآفاق التي تفرد الله إبداعا بآليات تدبيرها وتقديرها.

ثم انظر كيف أن الذي فلق الحب والنوى، هو فالق الإصباح:

فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [96] الأنعام

انظر إلى هذه المنظومة الكونية المحكمة التي تخرج منها آية إنبات الزرع وإخراج الحي من الميت..، وآية دوران الأرض حول نفسها، ودورانها حول الشمس..، وآية الليل حيث السكون في ظلمته..، والنهار حيث الضياء والحركة والسعي..، وكل ذلك يتم بحسابات دقيقة، وتدبير محكم، يقيم الناس على أساسه تقويمهم الهجري والميلادي وحساب الأيام والأشهر.

إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ [6] يونس

ولقد خلق الله تعالى الأرض بطبيعة وعلى حال تمكن الإنسان من أداء مهمته بسهولة ويسر وإقامة زراعته على مساحات شاسعة منها من غير مشقة، ولو كانت طبيعة الأرض كلها جبالا أو حجارة لوجد الإنسان مشقة كبيرة في العيش عليها.

وألقى الله الجبال الرواسي في الأرض لتستقر فلا يعطل اضطرابها وعدم توازنها مصالح الناس وحركتهم عليها.

وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ [19]

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ [20] وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ [21] الحجر

انظر إلى هذه المنظومة المحكمة، وتدبر قوله تعالى: "وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ"، ثم قوله تعالى: "وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ".

وفي الصحراء أرض مختلفة المراعى والكلأ، وهي مما ليس للإنسان فيه سعي وهي النباتات البرية التي أودع الله تعالى فيها من القوى ما جعل طعومها مختلفة مع أن الأرض واحدة والماء واحد.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ [27] السجدة

نعم.. "أَفَلا يُبْصِرُونَ"؟! فعلى أساس وجوب تفعيل الإنسان لآليات عمل القلب، من تفكر وتعقل ونظر..، مَكّنَ الله تعالى له أسباب الحياة، وأرشده إلى أدواتها وألهمه كيفية أدائها، وما على الإنسان إلا أن يسعى إلى الأخذ بها، ولكن بضوابط:

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [141]

وَمِنْ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [142] الأنعام

تدبر قوله تعالى: "وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ"، لتقف على التناغم القائم بين دلائل الوحدانية وأحكام الشريعة.

إن الإبل تحمل الناس ومتاعهم ومنها يأكلون، والبقر والغنم لطعامهم، ولهم في كل هذا منافع أخرى، من جلودها وأوبارها وأصوافها وأشعارها..، ولكن متاع دون إسراف. إن كل شيء خلقه الله تعالى جاء وافيا بالمقصود، على أحسن هيئة، وعلى ما يجب أن يكون.

إن هذا الماء الذي هو العنصر الأساس لإنبات الزرع، يسوقه الله تعالى إلى هذه الجنات المعروشات وغير المعروشات..، ولكن هناك أيضا آية كبرى لا غنى عنها لإتمام عملية الإنبات، وهي آية الرياح.

إن الرياح تحمل بخار الماء من على أسطح البحار إلى الطبقات العليا الباردة فيتحول البخار إلى سحاب ثقيل مملوء بالماء، يسوقه الله إلى الأرض الميتة، فتحيا به بعد موتها، ويخرج به من الثمرات ما يصعب حصره فيسعد الناس بذلك وينعمون.

إن الله تعالى هو الذي يرسل الرياح، بتدبيره وتقديره وبحكمته وعلمه.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [57] وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ [58] الأعراف

إن الهدف من ضرب الله تعالى الأمثال للناس هو إقامة الحجة عليهم وتذكيرهم بنعمه التي لا تحصى، لعلهم يشكرون. فالاستدلال على البعث بإحياء الأرض بعد موتها هو مقصد من المقاصد القرآنية العليا يهدف إلى تقريب المعاني. فعندما يلتقي الماء ببذرة تحمل جينات الحياة، وفي موعد معين يتحرك فورا أمر الله فيها للعمل وتصدر التعليمات من داخلها بأداء وظيفتها، فتحيا الأرض بعد موتها، ذلك فضل الله وعظيم تدبيره.

فالسحب تتكون من الأبخرة المتصاعدة إلى الغلاف الجوى، فإذا لامست هذه السحب طبقات باردة نزل منها الماء. والماء هو عنصر حياة كل كائن حي. إن السحب لا تقوم بوظيفتها من تلقاء نفسها، وإنما وفق منظومة من الأوامر الإلهية يرى أثرها كل عاقل سليم الفطرة والبصيرة.

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ [9] فاطر

إن من أعظم البراهين المشاهدة والدالة على البعث، آية إحياء الأرض بعد موتها.

إنه البرهان المتجدد الدال على قدرة الله وعظيم فضله. ويربط الله تعالى بين دلائل وحدانيته في الآفاق والأنفس وبين الالتزام بشريعته، فيخبر بعد بيان آية السحاب وبرهان البعث بعد الموت، أن عزة الإنسان وقوته في تمسكه بشريعة ربه الهادية إلى صراطه المستقيم.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ [10] فاطر

ثم يعود السياق ليتحدث عن دلائل الوحدانية، وآية من آيات الأنفس. فالإنسان الذي يعلم علم اليقين أن نسله خُلق من نطفته، وأنه خُلق من نطفة أبويه..، ألا يصل به هذا العلم اليقيني إلى أصل هذا الوجود البشري، آدم عليه السلام، الذي خلق من تراب؟!

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ [11] فاطر

انظر إلى هذا الترتيب المحكم، الذي يعتبر من أعظم دلائل الوحدانية: الخلق الأول وهو آدم عليه السلام، وزوجه، خلقهما الله تعالى من تراب، ثم خلق الله النطفة الأولى فيهما، ثم بدأت "آية الجعل" في عملها: "ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً"، لتكون سببا في تكوين هذه النطفة، التي ستصبح بعد ذلك أصل الوجود البشري.

ثم انتقل السياق بعد ذلك إلى آية من آيات التدبير، وهي نعمة خلق البحار من ماء غير ملوث، وحمل الماء للفلك التي تجرى فيه بما ينفع الناس.

بل وإن جريان الفلك في حد ذاته آية من آيات إلهام الله تعالى للإنسان، وما زوده به من وسائل إدراك يكشف بها كل يوم عن سنن وقوانين هذا الكون ما يسخره الله تعالى فيه لمنفعته.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [12] فاطر

إن العلاقة وثيقة بين دعوة القلب السليم إلى الإيمان بالآيات الدالة على وحدانية الله عز وجل، آيات الآفاق والأنفس، وبين دعوته إلى تصديق "الآية القرآنية"، التي جاءت تتناغم مع هذه الآيات الكونية، وتخبر بأن الذي حملها إلى الناس كافة، هو رسول الله محمد، عليه السلام. ألا يدل ذلك على أن محمدا، عليه السلام، هو رسول الله حقا وصدقا؟!

لم تعد الآيات الحسية المرتبطة بحياة الرسل تكفي لتوجيه القلوب إلى بارئها وإلى دلائل وحدانيته، وبديع صنعه، فكان منطقيا، مع عصر الرشد العقلي، أن يبعث الله تعالى خاتم النبيين محمدا، بالآية العقلية الخالدة، التي يسهل أن يؤمن بها أي إنسان في أي عصر دون حاجة إلى وحي جديد ورسالة جديدة، كما كانت الرسالات السابقة.

لقد جاءت رسالة الله الخاتمة، "آية قرآنية" تهدي الناس إلى صراط ربهم المستقيم وتقيم الحجة وتقطع المعذرة، وتصحح ما ورثوه وألفوه، من تدين باطل، وتبين العلاقة الوثيقة بين دعوة الرسول الخاتم ودلائل الوحدانية ووجوب الإيمان بـ "الآية القرآنية".

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ [184]

أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ [185]

مَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [186] الأعراف

تدبر قوله تعالى: "فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ"؟!

إن لكمال القدرة، ولعظيم الصنعة، آيات محسوسة مشاهدة، تصدق آيات الذكر الحكيم تصديقا مطلقا، فإذا لم يؤمن بها الناس فبأي حديث بعدها يؤمنون؟!

إن توحيد الله القائم على الفهم الواعي لدلائل الوحدانية، لا يتحقق إلا في قلوب سليمة، ومن خلال وسائل إدراك حية.

إن الاتباع الحق للشريعة الإسلامية لا يقوم إلا على العلم بحجية مسائلها فكما أن الله تعالى خلق هذا الكون بالحق على سنن وقوانين ثابتة، لا تتبدل ولا تتغير فكذلك أنزل شريعته بالحق، وفق سنن وقوانين تعهد عز وجل بحفظها، لتظل قائمة بين الناس إلى يوم الدين.

إن شريعة الله تعالى حق، وفطرة التوحيد حق، والكون حق..، ولو أن المسلمين تعاملوا مع كتاب الله بوصفه "آية قرآنية" وليس فقط كتابا إلهيا حمل لهم دينهم، ملة وشريعة، لفهموا حكمة الربط بين "الآيات الكونية" و"الآيات القرآنية"، في سياق محكم ولوقفوا على ما هم فيه من مأساة التفرق والاختلاف، ولعلموا أنه يستحيل أن تكون هناك نصوص شريعة غير القرآن، ولا تأخذ نفس خصائص "الآية القرآنية".

لقد أرسل الله تعالى رسوله محمداً بدين الحق، برسالة عالمية تقود البشرية إلى خيري الدنيا والآخرة، تتفاعل مع دنيا الناس بمرور الزمن وتطور الحضارات، تدفع الإنسان إلى مزيد من العمل الصالح، مزيد من البر، مزيد من رفع الضرر، مزيد من حماية النفس والبيئة من التلوث..، ولو فهم المسلمون مقاصد هذه "الآية القرآنية" وأقاموها في قلوبهم قبل أن يقيموها بين الناس لحقق الله تعالى فيهم وعده، ولاستخلفهم في الأرض، ولبدل خوفهم أمنا، ولكانت لهم الريادة العلمية في كافة المجالات.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ [55] النور

إن المسلمين المؤمنين الصالحين المتقين، الذين رضي الله تعالى عنهم، فاستخلفهم في الأرض، يستحيل أن يصنعوا تلوثاً بيئيا، أو فكرياً أبداً.

لا شك أنهم كانوا سيستبدلون وقود النقل والحركة بالطاقة الشمسية، ولكانوا أول من سير سيارة بالوقود الشمسي حيث لا عادم ولا تلوث بيئي.

إن المستفيدين من دلائل الوحدانية، في الآفاق والأنفس، هم أولو الألباب أصحاب القلوب السليمة الذين دخلوا في الإسلام من باب "الآية القرآنية" فكانوا في جميع أحوالهم عبادا لله مخلصين، موحدين، مطيعين شاكرين على نعمه التي لا تحصى.

منظومة "النعم"

لقد عرض القرآن الكريم منظومة "النعم" عرضا يتناسب مع عظمة المنعم وجلال قدره. فهناك نعمة إرسال الرسل لهداية الناس إلى صراط ربهم المستقيم، ونعمة تأييد الله ونصره لعباده الصالحين، ونعم الخلق والتدبير والتقدير..، إن الكون كله ينطق بنعم الله التي لا تحصى. لقد أقام الله تعالى حجته على الناس من خلال واقع مشاهد من النعم التي يعيشون فيها ليل نهار تنطق بوحدانيته. إن ذكر القرآن للنعم المحسوسة المشاهدة التي ينتفع بها الإنسان دوما في حياته اليومية، يكون أدعى للشكر ولإقامة الحجة، وذلك لانتفاء مبرر الغفلة.

لقد خاطب الله تعالى الناس بدلائل الوحدانية، بأسلوب علمي منطقي سهل، وبلغة عالمية يفهمها كل البشر. إنها لغة الكون الذي يعيشون فيه، لغة الإنعام الإلهي الذي لا يحصى. فإذا لم يكن الله تعالى هو الخالق الرازق المنعم فمن يكون إذن؟! فليعلن كل خالق عن نفسه، وليعلن كل رازق عن نفسه وليقم كل حجته وبرهانه على صحة ادعائه. ولكن كيف وهذا المدعي يشهد بذاته على نفسه بأنه مخلوق، والمخلوق لابد له من خالق والخالق لابد أن يرعى خلقه؟

ولا ينتظر الوحي القرآني إجابة مجيب، وإنما نزل بالسؤال والجواب في آن واحد لأنها مسألة من البديهات العقلية.

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [1]

مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [2]

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [3]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ [4] فاطر

إن هداية القرآن هداية عالمية، لا يصرف الناس عنها إلا شهواتهم وميراث آبائهم الباطل، ولو خاطب هذا القرآن جبلا، في أي مكان على سطح هذه الأرض، لتأثر الجبل، ولسجد خاشعا متصدعا إقراراً منه بوحدانية الله تعالى وبفاعلية أسمائه الحسنى ونعمه التي لا تحصى.

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [21] الحشر

إن الكافر الذي ينكر حجية القرآن، وصدق آياته، لن يستطع إنكار حجية آيات الآفاق والأنفس، سواء أكان ذلك في نفسه أم فيمن حوله. كيف وهو يعيش في نعمها ويتمتع بخيراتها.

إن حجية كتاب الله قائمة بين الناس أجمعين إلى يوم الدين، لأنه يستمد حجيته من الله رب العالمين.

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ [22]

هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ [23]

هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [24] الحشر

نعم.. "هُوَ اللَّهُ" الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العُلى، الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعته، وكمال حكمته، وسعة فضله ونعمه.

أفلا يدل ذلك على أن الله عز وجل هو منزل هذا القرآن؟!

لقد دعا الله تعالى الناس جميعا إلى عبادته، بعد أن أقام الدليل على أنه وحده المستحق للعبادة، وذلك بما بث في الكون من آيات الآفاق والأنفس، فهل ظهر منافس لله في ألوهيته، أو في ربوبيته، أو في أسمائه الحسنى وصفاته العُلى؟!

إنها دعوة إلى النظر في حجية دلائل الوحدانية، ومنظومة "النعم"، على العالمين.

لذلك يربط الله دوما بين منظومة "النعم" وقضية التوحيد، ليعلم الناس أن الذي خلق هو الذي دبر وقدر، وهو الذي أنعم وهدى، هو الرحمن، إله واحد لا شريك له.

الرَّحْمَنُ [1] عَلَّمَ الْقُرْآنَ [2] خَلَقَ الإِنسَانَ [3] عَلَّمَهُ الْبَيَانَ [4] الرحمن

وإن من أعظم النعم على العالمين نعمة إرسال خاتم النبيين محمد، عليه السلام برسالته العالمية الخالدة، هذه الرسالة التي تتفاعل آياتها مع كل ذرة في هذا الكون لتدل على خالقه. وإن من أعظم النعم نعمة تعليم القرآن. لقد علّم الله رسوله كيف يقرأ القرآن وعلّم الرسول بدوره أصحابه، وعلّم الصحابة بدورهم التابعين.

وما كان للإنسان أن يتعلم القرآن قبل أن يتعلم البيان ولا يمكنه أن يتعلم البيان بدون وسائل إدراك سليمة تعينه على ذلك، فهو الرحمن الرحيم، وكل ذلك عبر "منظومة التواصل المعرفي".

إن التفاعل الإيماني بين الإنسان وخالقه يجعله يرى دقة الصنعة وآلاء الرحمة وخضوع الكون لخالقه المبدع. إن الشمس والقمر وأثرهما على سكان الأرض، قد أذهلا كثيراً من العلماء. تدبر قول الله بعدها:

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ [5] وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ [6] وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ [7] الرحمن

إن الأرض تدور حول نفسها بسرعة نحو ألف ميل في الساعة، وحول الشمس بسرعة ستين ألف ميل في الساعة، وذلك وفق منظومة عمل إلهية لا تخطئ أبدا. فهل من خالق غير الله يمسكهما في هذا الفضاء الشاسع الذي يسبح فيه كل نجم وكوكب لخالقه الله عز وجل؟ فيقول الله بعدها:

وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ [10] فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ [11] وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ [12] فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ [13] الرحمن

إن من آثار الرحمة الإلهية خلق الكون بميزان الحق والعدل، فلا ترى خللا في هذا الكون إلا فيما جعل الله فيه للإنسان خيارا. هنا، وفي هذه الدائرة فقط دائرة الاختيار البشري، يمكنك أن ترى الظلم والفساد والتحلل والطغيان.

نعم.. "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ". لقد أرسل الله تعالى الرسل لإقامة الحق والعدل بين الناس لتنسجم حياتهم مع الكون من حولهم فيسعدوا برحمة الله تعالى وفضله. لقد تعدد قول الله تعالى "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة وهي السورة الوحيدة التي افتتحت باسم من أسماء الله الحسنى.

وإن بين الاسم المختار لهذه الافتتاحية وتكرار آيات الآلاء في مقامات الامتنان والتعظيم المختلفة..، علاقة تلازم، وبيان لاستعراض صفحة الكون وتفاعلها مع آيات الكتاب الحكيم، من منظور الرحمة المنفرد بها الإله الخالق.

فها هي سورة واحدة [الرحمن] تكفي لإقامة الحجة والبرهان على أن هذا القرآن هو كلام الله عز وجل، خالق هذا الكون ومبدع آلائه، وأنه "الآية القرآنية" الدالة على صدق الرسول فيما بلغ عن ربه.

أفلا تدل هذه النعم على أن منزلها هو منزل هذه "الآية القرآنية"؟!

لقد خلق الله تعالى الإنسان في بيئة نقية خالية من التلوث الفكري والبيئي فأفسد على نفسه نعمة الهواء النقي غير الملوث، كما أفسد على نفسه حياته الفكرية، ببعده عن صراط ربه المستقيم. فهل يمكن أن يقبل مسلم، فهم وتدبر ما وراء قوله تعالى: "فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" من عطاءات أن يكون سبباً في إحداث تلوث بيئي أو فكري يضر بالكون والإنسان؟!

لقد جاء دور الإسلام ليرفع الضرر عن هذا الإنسان، وعن هذا الكون، وجاء دور المسلمين العابدين العارفين قدر ربهم، الشاكرين له نعمه التي لا تحصى، جاء دورهم ليقوموا بالشهادة على الناس، بالحق والعدل، وبرفع الضرر، الأمر الذي لا يتحقق إلا بتملكهم لزمام العلوم والتقنيات الحديثة، لتكون لهم الريادة على حركة البحوث والتجارب والاكتشافات العلمية.

والسؤال: أليس من متطلبات الشهادة على الناس أن يكون المسلمون اليوم هم حملة الدعوة إلى "التنمية المستدامة"؟!

فمثلا: إن نعمة الهواء الذي به قوام الحياة، والذي يصرخ الإنسان من تلوثه اليوم بل ومن تلوث البيئة كلها من حوله، لا يؤثر هذا التلوث على إنسان اليوم فقط وإنما يمتد ليشمل الأجيال المقبلة أيضا. ومع علم المسلمين بذلك، فما زالوا يضيفون كل يوم مزيدا من التلوث أشد خطورة عما سبقه، ولا حياة لمن تنادي.

إن الإسلام عبودية خالصة لله تعالى وتصديق لفاعلية هذه العبودية في جميع مناحي الحياة، وشكر لله تعالى على نعمة هذه العبودية. وإن الكافر لا يؤمن بالله ولا يتقيه ولا يحمده ولا يخاف عذابه، لذلك فالكافر يفسد في الأرض دون وازع من إيمان ينهاه عن ذلك. لقد فقد الأمن والأمان والبركة وصلاح البال.

فهل يصحو الوازع الإيماني في قلوب المسلمين، فيتقوا الله في أعمالهم ولا يشاركوا المفسدين في الأرض تدميرهم للإنسان، بيئيا وعصبيا وعقليا وأخلاقيا؟! هل يمكن أن يكون لهم موقف في إصلاح ما أفسده هؤلاء على الأقل برفع الضرر عن أي مكان يحلّون فيه؟!

إن الإسلام ليس ضد التقدم العلمي أو التقنيات الحديثة وتطورها، كما أنه ليس ضد تسخير العلم لخدمة الإنسان في كافة مجالات الحياة. ولكنه في الوقت نفسه ليس مع أن يكون العلم سببا في تخريب أية نعمة أنعم الله تعالى بها على الإنسان.

إن القلب السليم لا يقبل من ثمار المكتشفات إلا ما يقبله قانون الفطرة السليمة الذي يقوم على تقوى الله، وإقامة الحق والعدل بين الناس، واحترام كرامة الإنسان وحريته وصالح الأعمال، ورفع الضرر، ومحاربة التلوث الفكري والبيئي.

إن ما ورد في هذا الفصل من حديث عن منظومة "النعم"، كان يمكن أن يرد أيضا في منظومة "الخلق"، ومنظومة "التدبير"..، وغير ذلك من المنظومات الدالة على الوحدانية، فكلها تعمل في إطار منظومة التوحيد، وإخلاص العبودية لله تعالى، التي لو أقام عليها الناس دينهم، لما عرفوا تلوثاً بيئياً ولا فكرياً، ولفتح الله تعالى عليهم بركات من السماء والأرض.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [96] الأعراف

إن المشركين يعترفون بأن الله تعالى هو خالق هذا الكون ومبدعه، فهل أقاموا على اعترافهم هذا ما يلزمه من إخلاص عبوديتهم لله وحده؟!

تدبر قول الله تعالى في سورة الزخرف:

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ [9]

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [10]

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ [11]

وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ [12]

نعم.. هو: "الَّذِي جَعَلَ" – "وَالَّذِي نَزَّلَ" – "وَالَّذِي خَلَقَ".

إن الذي أقر بوحدانية الله تعالى، وبربوبيته وألوهيته لهذا الكون، عليه أن ينزه الله ويسبحه دوما ويشكره على هذه النعمة، وعلى كل نعمة من نعم الله التي لا تحصى ومنها نعمة الفلك.

لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ [13] وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ [14] الزخرف

لاحظ العلاقة بين دلائل الوحدانية التي حملت هذه النعم، ووجوب تنزيه الإنسان الذي يعيش وسط هذه المنظومة المسبحة، لله تعالى، وقوله: "سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ..". ولكن المشركين المكذبين، الذين اعترفوا بربوبية الله تعالى لهذا الكون، لم يخلصوا عبوديتهم لله وحده

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ [15] الزخرف

وفي سورة النحل مجموعة من الآيات شملت نعماً كثيرة، في معظم مجالات الحياة توجب على الناس شكر الله تعالى، ومن هذه النعم نعمة وسائل النقل، قديماً وحديثاً.

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ [8] النحل

إنها نعمة تتفاعل مع كل عصر، ومع التقنيات التي لم تكتشف بعد: "وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ". ولقد سخر الله تعالى البحار لخدمة الإنسان، فجعلها على هيئة يمكن معها تسيير الفلك والصيد، واستخراج ما فيها من ثروات.

كما يستخرج الإنسان من البحر طعاما طريا لذيذا، وأدوات ومواد التزين كاللؤلؤ والمرجان، ويسر الله له أمر سفره وسياحته وتجارته.

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [14] النحل

فهل اعترف الإنسان لله تعالى بهذا الفضل، وأقر له بالوحدانية، وخضع له وسجد مخلصا له الدين؟! انظر إلى جمال التعبير القرآني "وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ"، والذي يحمل دعوة عالمية للنظر والتأمل في بديع صنع الله وعظيم قدرته. وتدبر قوله تعالى بعدها: "وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ".

إن تكرار رؤية آيات الآفاق والأنفس دون أخذ العبر والعظات منها يفقد القلب فاعلية الشكر فتفسد ملكة التفكر. لذلك لابد من ربط الأسباب بمسبباتها عند رؤية الظواهر الكونية.

فإذا نظر الإنسان إلى ماء البحر وقارن بينه وبين ماء النهر ووجد أن الماء واحد لكن الطعم مختلف، وأن في الماء المالح سمكا طريا، وفي العذب أيضا سمك طري إذن فيجب أن يكون وراء هذه النعم إله منعم حكيم.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [12] فاطر

وعن آية البحار، يضرب الله تعالى المثل، في سورة يونس، براكب البحر، وما يتعرض له من شدائد: ريح مهلكة، أمواج مدمرة ثم لا يلبث بعد استجابة دعائه أن يعود إلى ما كان عليه من معصية وبغي وظلم. تدبر قوله تعالى في سورة يونس:

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ [22]

إن الله تعالى يمهل الناس لعلهم يتذكرون، فيرجعوا عن بغيهم وتعديهم على حق الله تعالى في مطلق طاعته وإخلاص العبودية له، ويعلموا أنما هو متاع الحياة الدنيا وزينتها، وأنهم سيؤاخذون يوم القيامة على ما قدمت أيديهم.

إن الله تعالى يبتلي الناس بالشدائد والمحن ليعلو صوت الفطرة، فيتذكروا نعمه فيناجوا ربهم، ويدعوه أن يرفع عنهم البلاء. لقد وعدوا الله بالشكر والاستقامة على الطريقة، فلما نجاهم نسوا وعدهم، وما كانوا عليه من حال الخوف والرجاء ونسوا تذللهم لخالقهم، وها هم الآن يعرضون عن ربهم!!

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [23] يونس

ونعود إلى سورة النحل، والحديث عن آية الجبال الرواسي، والنجوم التي يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [15] وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ [16] النحل

إن مجرد رؤية آيات الله في حد ذاتها نعمة كبرى تستوجب الشكر.

لذلك كان منطقيا أن يتوجه الله تعالى بسؤاله إلى القلب السليم، وإلى الفطرة النقية: هل من المنطق مساواة من يخلق بمن لا يخلق؟!

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ [17]

أفلا يتذكرون الحقيقة التي أخفتها الغفلة؟! لذلك عقب بقوله تعالى:

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ [18] النحل

إنه لابد من مقابلة نعم الله بمزيد من الشكر، ومزيد من العمل الصالح ومزيد من الطاعات. لذلك ربط الله تعالى هذه النعم بقضية التوحيد:

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ [19] وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ [20] أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ [21] النحل

إن القرآن الحكيم ينطق بهذه الحقيقة ليل نهار، ويعلن أن الله الواحد الأحد هو الذي خلق، وهو الذي أنزل، وهو الذي أخرج، وهو الذي سخر، وهو الذي أنعم، فهو وحده الذي له الأسماء الحسنى.

فلماذا يدعون مع الله آلهة أخرى؟! لأنهم لا يؤمنون بالآخرة!!

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ [22] لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ [23] النحل

لذلك يربط الله تعالى دوما بين منظومة "النعم"، في الآفاق والأنفس، وبين ما يستلزم ذلك من شكر المنعم، وتوحيده، وطاعته، والخضوع والسجود له. فكل المخلوقات التي على هذه الأرض، تقر بخضوعها لله تعالى خضوعا تنطق به ظلالها التي لا تفارقها أبدا، مادامت الشمس تشرق.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ [48] وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ [49] يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [50] النحل

إن الذي لا يقر لله تعالى بالوحدانية، ويسجد لـ "آيته القرآنية"، قد تمكن الكبر من قلبه، فأمرضه. إن الذين يدعون مع الله آلهة أخرى قلوبهم قاسية جاحدة مستكبرة، وأمامهم الكون كله ساجد لله مختارا، أو قسرا؟!!

وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ [51]

وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ [52]

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ [53]

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ [54]

لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ [55] النحل

فهل يمكن لإنسان أن يتخلص من ظله، أو ألا يستسلم للنوم، أو أن يمنع جسده من أن يؤدي وظائفه؟!

فماذا لو أن الله أسند إليه مهمة تشغيل وظائف أعضائه؟! إنه سينهي حياته بنفسه فورا!! وهكذا حال جميع المخلوقات، يشهد واقع وجودها وأداؤها لوظيفتها بخضوعها وسجودها لله تعالى.

انظر إلى عظيم نعم الله تعالى، وبديع صنعه، عندما يسخر الأنعام للإنسان ليفيد منها، ومما في بطونها، من لبن يحتوي على قيمة غذائية عالية جدا.

والآية في ذلك أن هذا اللبن ما هو إلا إفراز كباقي إفرازات الحيوان، إلا أنه يختلف عنها في أن الله تعالى أراده نعمة وقيمة غذائية لبني آدم، وحيث شاءت إرادة الله شيئا فإنه يخرج وفق مشيئته على أكمل وجه.

إن غدد الكليتين تستخلص البول من الدم، والأمعاء الغليظة تستخلص الأملاح المعدنية ثم تخرج فضلات الطعام.

وغدد الخصية تفرز المني، ويفرز الضرع من الدم لبنا نقيا لا تلوث فيه ولا نجاسة صالحا للشرب فور خروجه.

وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ [65]

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ [66] النحل

انظر.. إن الدم في العروق واحد، تخرج منه بعض أجزاء الجسم ما هو نجس ضار بصحة الإنسان، وتخرج أجزاء أخرى ما هو طاهر نافع للإنسان.

إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ [3]

وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [4] الجاثية

وكذلك يستخرج الإنسان من ثمار النخيل والعنب أشربة حلوة المذاق، جاء ذكرها عقب نعمة شراب اللبن.

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [67] النحل

ثم جاء الله لهم بنعمة شراب آخر لا يقل في فائدته عن سابقيه، ولا يقل في آية تكونه عن آية تكون اللبن، إنه شراب عسل النحل.

وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ [68]

إن هذه الحشرة الصغيرة الضعيفة تخرج بقدرة الله وتدبيره ما تخرجه الأنعام من نعم يسعد بها الإنسان. فالأنعام تتغذى على المرعى فتخرج اللبن، والنحل يتغذى على أزهار النباتات والأشجار فيخرج العسل جاهزا للشرب فور إفرازه، ودون أن يكون للإنسان أي دور في إنتاجه داخل هذه النحلة أو في إخراجه منها.

ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [69] النحل

إن هذه الحشرة الضعيفة تعمل في منظومة هندسية رائعة بوحي من الله تعالى، أي بما أودعه سبحانه فيها من برنامج عمل منظم تقوم بتنفيذه بدقة متناهية وبإحكام بديع. وآية النحل ما هي إلا ذرة من عظيم نعم الله تعالى وقدرته وتدبيره.

إن الحقيقة العلمية في القرآن الكريم تكمن في كيفية التكوين، وكيفية الصنع وفي كيفية الأداء، وليست فقط في الكشف عن النتائج المترتبة على ذلك.

إن الحقيقة العلمية في عالم النحل تكمن في كيفية تلقي النحل الوحي والأمر الإلهي المحرك لها لأداء مهمتها، أي في ذات "الآية القرآنية" وما تحتويه من تصديق مطلق لأداء المخلوق وظيفته وفق أوامر خالقه، سواء أعلم ذلك العلماء أم لم يعلموا، وسواء أأيدت ذلك نتائج الدراسات والبحوث المعملية أم لم تؤيده.

تدبر قوله تعالى: "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ"

إن الوحي من رب العالمين في حد ذاته "آية". وإن استقبال النحل لهذا الوحي الذي يحمل برنامج عملها، والقيام بتنفيذه "آية".

ومهما حقق التقدم العلمي من نتائج وحقائق تؤيد ما ورد في كتاب الله تعالى من إشارات علمية، فسيظل الإنسان عاجزا أن يصل إلى علم "الكيفية الإلهية".

فهل استطاع أحد معرفة كيف تتلقى النحلة هذا الوحي الإلهي الذي يوجهها إلى اتخاذ البيوت في منظومة هندسية بديعة؟! ثم ما هي آليات تحويل ما تحصل عليه من غذاء إلى شراب حلو المذاق، فيه شفاء للناس؟!

لقد تعامل العلماء مع الجانب المادي الملموس المشاهد الذي يمكن ملاحظته وإخضاع الظاهرة فيه للدراسة والتحليل والتجارب المعملية، أما ما وراء عالم الشهادة فمصدر معرفته هو "الآية القرآنية" حجة الله على العالمين إلى يوم الدين، والتي هي تصديق لآيات الآفاق والأنفس.

فلينظر الإنسان إلى بيوت النحل وما فيها من روعة الصنع ودقة البناء، وما فيها من دروس علمية وعبر مستفادة وحكم عالية. فالنحل يلهم بناء البيوت في الأماكن العالية للمحافظة على منتجه من العسل فمن علمه ذلك؟! وهل كل الجبال والأشجار والعرائش صالحة لأداء النحل لمهمته؟! وهل يأخذ النحل أوامر العمل من قيادة منوط بها هذه المهمة؟ وكيف يلهم امتصاص المواد السكرية مما تفرزه الأزهار ليعيد تصنيعها في بطونه فتزداد حلاوة؟!

فمن الذي يلهم النحل أن يقذف بما في بطونه من عسل في خلاياه التي صنعها بنفسه ثم يعود لإحضار غيره..، كيف يتم ذلك؟! وكيف يخرج العسل مختلف المذاق والألوان يحمل الشفاء للناس؟! كل ذلك زيادة في العبرة وتأكيد على عظيم القدرة والتدبير..، وإرشاد لإعمال الفكر والنظر..، في آيات الآفاق مع بقاء الآية آية.

إن ما يكشف عنه العلم من حقائق مؤيدة لما ورد في هذه "الآية القرآنية" من إشارات علمية في مختلف مناحي الحياة هو في الحقيقة كشف عن ظواهر موجودة أصلا استطاع الإنسان أن يراها بتقنيات متطورة، كل حسب إمكانيات عصره، ثم يأتي إنسان العصر المقبل بتقنيات أكثر تطورا، تمكنه من رؤية مزيد من آيات الآفاق والأنفس لم يرها عصرنا.

إن آية خلق الإنسان هي شجرة الحياة، هي شجرة الأنساب، والبنين والحفدة، إنها نعمة كبرى أقام الله عليها هذا الوجود البشري.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ [70]

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ [71]

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ [72]

فماذا فعل البشر بعد ذلك؟!!

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ [73] النحل

إن الذين لا يقيمون إيمانهم على العلم اليقيني، ومنهج الاستدلال العقلي، أولئك يخشى عليهم أن يقعوا في دوامة التقليد الأعمى، التي وقع فيها هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أندادا، فلا ينزهون الله تعالى عما لا يليق به، مع أنهم يعيشون ليل نهار في نعمه وفضله ورحمته، فبأي منطق يشركون بالله خالقهم؟!

لذلك عقب على ما سبق من آيات وعبر ونعم..، وعلى انفراد الله تعالى بالألوهية ونفى أن يكون له سبحانه شريك فيما خلق وأنعم..، بتحذير الناس من تشبيه الله تعالى بمخلوقاته، وألا يثبتوا لها صفة من صفاته، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [74] ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ [75]

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [76]

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [77] النحل

إن العلاقة بين منظومة "النعم" والتوحيد الخالص لله تعالى علاقة ترابط وتلازم. لقد خلق الله تعالى الإنسان من عدم، وجعل له وسائل إدراك وآليات عمل القلب، وبعد أن كان لا يعلم شيئا علم أشياء كثيرة.

لقد أنعم الله تعالى على الإنسان بنعمة تحصيل العلوم والمعارف، وذلك عن طريق وسائل الإدراك، السمع والبصر، وهما من أهم وسائل الإدراك وأعظمها، حيث بهما يدرك الإنسان المحسوسات والمعقولات التي يتم نقلها إلى قلبه فتتحول إلى علم.

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [78] النحل

إن السمع واحد، والأبصار قد تتعدد في مرائيها، والآية الوحيدة التي جاء فيها الإبصار مفردا، في القرآن كله، هي آية سورة الإسراء، ذلك لأنها جاءت تتحدث عن مسئولية الإنسان الفردية، فتدبر:

وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً [36] الإسراء

وإذا كانت الحواس في حد ذاتها نعمة، فإن آليات تحصيلها للعلوم نعمة كبرى تحتاج إلى شكر أكبر. فكيف يكون حال الإنسان إذا غابت عنه هذه النعم..، مَن غير الله يستطيع أن يعيدها إليه؟!

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ [46] الأنعام

وبنعمة البصر يرى الإنسان الطير، هذا المخلوق الضعيف، الذي يحلق في جو السماء بجناحيه لغاية خلقه الله لها، وعلى حالة تساعده على القيام بها على خير وجه. لذلك جعل الله جسد الطير على شكل مناسب يساعده على أداء مهمته، وسخر الله له الهواء، وألهمه كيفية الطيران دون أن يسقط إلى الأرض.

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [79] النحل

فهل يبصر الناس آيات الآفاق برؤية إيمانية وهم داخل منظومة القدرة والنعم؟! إن هناك من الطيور ما يهاجر إلى مسافات بعيدة، تصل إلى آلاف الكيلومترات وفق برامج هجرة، مودعة فيها لتعود إلى وطنها في توقيت محدد وبدقة متناهية.

فأي حاسب آلي هذا المركب بداخل هذه الطيور يضبط حركتها؟!

ومن نعم الله تعالى أن ألهم الإنسان اتخاذ البيوت سكنا، وهو مظهر من مظاهر الحضارة، بدأ مع عصور التمدن الأولى، ولا زال يتطور.

تدبر قول الله تعالى في سورة النحل:

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ [80]

إن الآية تكمن في إلهام الله تعالى الإنسان أن يكون له سكن يحفظه من تقلبات الجو وسباع البر، سواء أكان ذلك في صورته البدائية، أم كان في ناطحات سحاب. وهناك نوع من السكن المؤقت سهل الحمل والتركيب وهو المسمى بالخيام.

لقد كانت الخيام تصنع في بداية الأمر من جلود الأنعام، ثم تطورت المساكن وتطورت المواد المستخدمة فيها تطورا هائلا وكذلك طرق البناء وأدواتها وأشكالها وأحجامها والخدمات الملحقة بها.

ومن نعم الله وعظيم فضله وكرمه أن ألهم الإنسان الصنعة والحرفة. ولقد ألهم الله تعالى الإنسان صناعة الأثاث والمتاع بمختلف أنواعه وأغراضه وبما يحقق له راحته وسعادته.

ومن نعم الله ورحمته ولطفه بالإنسان أن أرشده إلى صنع ما يحمي به جسده من شدة حر الشمس وقسوة البرد، فصنع اللباس الواقي والمظلات الحامية من ضوء الشمس والأمطار. كما ألهمه أيضا صناعة دروع الحرب وقاية لجسده من بأسها.

كما هدى الله الإنسان إلى المواد التي يصنع منها الأثواب التي تقي جسده حر الشمس وبرد الشتاء وبأس القتال، وألهمه صناعتها، ثم تواصلت هذه الكيفية وتطورت حسب إمكانات كل عصر.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ [81]

نعم أسلمنا.. وكيف لا نسلم ونحن نعيش في كل هذه النعم؟!

إنه لا مفر من العودة إلى بداية الطريق. فالطريق إلى الإسلام تبدأ أولاً بمعرفة الله معرفة علمية تثمر في القلب فهما صحيحا لخصائص الألوهية.

معرفة تقوم على الحجة والبرهان، تقوم على المعرفة العلمية بأنه "لا إله إلا الله" بكل ما تحمله شهادة التوحيد من مقتضيات. معرفةً تقيم الطاعة والاتباع للشريعة الخاتمة على الفهم الصحيح لمقاصدها.

لذلك ختم الله هذه المجموعة من النعم بقوله:

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ [82] النحل

إن تولي الكافرين عن دعوة رسول الله لن ينقص من دين الله شيئا. فإن لم يسلموا على أساس هذا الإيمان العلمي القائم على الحجة والبرهان فإن الله لن يقبل منهم دينا غير الإسلام. والمسلمون ليسوا من هؤلاء الذين وصفهم الله بعد الآية السابقة، بقوله:

يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ الْكَافِرُونَ [83] النحل

إنها دعوة إلى التدبر والنظر في هذا الكون، للوقوف على فاعلية نعم الله التي لا تحصى. إنها دعوة للدراسة والبحث العلمي والاستفادة مما سخره الله تعالى للإنسان من نعم في كافة مجالات الحياة، فشُكر الله على بديع نعمه وعظيم فضله، يكون بتسخير العلم لصالح البشرية، وحث العلماء على الاستفادة من دلائل الوحدانية في ميادين البحث العلمي.

تدبر كيف استخدم السياق القرآني لفظ "التسخير" لبيان أن نعم الله لا تحصى:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنْهَارَ [32]

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ [33]

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ [34] إبراهيم

إن الماء أصل كل حياة. إن نعمة الماء آية من آيات القدرة والرحمة الإلهية.

إن كوكب الأرض يحمل كمية واحدة من المياه ثابتة لا يختلف مقدارها، وقد وزعت وفق سنن دقيقة عادلة محكمة.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ [17] وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ [18] فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [19] وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ [20] المؤمنون

تدبر قول الله تعالى: "مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ"، وما في ذلك من نعمة توفير المياه الجوفية لأهل الصحراء، وللأماكن التي لا تصل إليها كمية مناسبة من ماء المطر. وكلها دلائل على الخير والعطاء الإلهي، موجبة للشكر الدائم.

إنها لغة التفاعل الحي بين الإنسان والوجود من حوله: في طعامه، ولباسه، ونومه ومرضه، وزراعته، وصناعته، وسفره.

إن كثيرا من الناس لا يتدبرون القرآن بوصفه "آية" تشترط للإحساس بها، والوقوف على عطائها..، أن تُقرأ أولا قراءة تتفاعل فيها آياتها مع الآيات الكونية، عن طريق تفعيل آليات عمل القلب وذلك للوقوف على دلائل الوحدانية الموجبة للتوحيد الخالص.

ولأهمية هذا التفاعل، ربط الله تعالى أوقات الدعاء، والصلاة، بعلامات فلكية مشاهدة، على المصلي أن ينظر إليها، ويتفكر فيها [بِالْغُدُوِّ وَالآصَال] ويستحضر عظم هذه الآيات الكونية..، فيسجد لخالقها ومبدعها، طائعا مسبحا.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [204] وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ [205] إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ [206] الأعراف

إن الوسائل يجب ألا تشغل العالم عن الغايات

لذلك يستوي من آمن بآيات الآفاق والأنفس في عصر الرسالة إيمان تصديق وتسليم مع من آمن بها بعد عصر الرسالة، حيث التقنيات المتطورة، التي تكشف كل يوم عن مزيد من آيات الوحدانية والقدرة الإلهية.

إنهما يستويان من حيث الغاية التي جمعتهما: الإيمان بالوحدانية وإخلاص العبودية لله تعالى الواحد الأحد والعمل بمقتضى هذه العبودية.

لقد دخل الجيل الأول الإسلام وصدقوا رسالة محمد، عليه السلام، من باب واحد هو باب "الآية القرآنية"، وليس على أساس التفسير العلمي لما احتوته هذه الآيات من إشارات علمية، والذي يتوقف على الإمكانات المعرفية لكل عصر وتقنياته المتطورة. وسواء أكشف العلم عن هذا التفاعل أم لم يكشف، فستظل "الآية القرآنية" هي الحقيقة العلمية النهائية المطلقة، التي لا يمكن أن تتعارض مع حقيقة علمية ثابتة، والتي تهدف إلى بيان دلائل الوحدانية وأن هذا القرآن هو كلام الله يقينا.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ [71] وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ [72] وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ [73] يس

نعم.. "أَفَلا يَشْكُرُونَ".. ولكنهم لم يشكروا!!

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ [74] لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ [75] فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ [76]

ثم تدبر كيف أقام الله تعالى عليهم الحجة العلمية المشاهدة لكل ذي بصيرة.

أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [77] وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ [78] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [79] يس

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ [3]

خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [4] وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ [5] النحل

انظر إلى دلائل الوحدانية، وفاعليتها في الآفاق والأنفس، وكيف يلفت القرآن النظر إلى ما فيها من نعم لا تحصى: "لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ". فهل شكر الإنسان ربه على هذه النعم وكان من الشاكرين المسبحين؟!

لقد أودع الله تعالى في الكون من العجائب ما أدهش العلماء وأعجزهم. فهذا النبت الأخضر، الذي به ماء، يتولد منه نار عند احتكاكه بنوع آخر منه. فهناك نبات يسمى بشجر المرخ [بفتح الميم وسكون الراء] ونبات يسمى بشجر الغفار [بفتح الغين والفاء] إذا حُكَّ أحدهما بالآخر تتقدح منهما النار. وبهذه الطريقة كان الناس قديما يوقدون النار. فتدبر كيف عرض القرآن هذه النعمة كدليل من دلائل الوحدانية.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ [80] يس

فمن ذا الذي ألهم الإنسان قدح الشجر الأخضر في الوقت الذي لا يخطر ببال أحد أن تخرج النار من هذه الشجرة الخضراء؟! إنه الله الخلاق العليم.

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ [81] إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [82] يس

إن الناس لو شكروا ربهم ليل نهار ما وفوه حقه على نعمه التي لا تحصى فكيف بهم يعرضون عن عبادته ويعبدون غيره؟! يعبدون من لا يملك لهم نفعا ولا ضرا؟!

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [83] يس

إن التسبيح هو التفاعل الإيجابي الحي، بين المخلوق وخالقه، الله عز وجل والذي قام عليه هذا الوجود.

لقد أفسد البشر كثيرا من نعم الله عليهم، فلم يكونوا من الشاكرين المسبحين.

لقد لوثوا حياتهم البيئية والفكرية بأيديهم، فلم يعودوا يتذوقون حلاوتها ويكفيهم ما يفعلونه بنعمة مياه البحار والأنهار، وما يلقونه فيهما من ملوثات ضارة بجميع المخلوقات وهي التي تحمل لهم كثيراً من النعم والأرزاق.

ولو علم الناس ما في هذه البحار وما في هذه الأنهار من نعم وآيات لعلموا مدى الجرم الذي يرتكبونه بتلويثها كل يوم بأيديهم.

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً [53] وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنْ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً [54] الفرقان

ألا يكفي الناس نعمة النظر إلى هذا الحاجز المائي الذي يفصل بين المياه المالحة والعذبة كي لا يبغي أحدهما على الآخر؟! ألم ينظروا إلى هذا البرزخ الذي جمع الله تعالى فيه خصائص الماء المالح والماء العذب؟!

ألم تكفهم هذه الآية ليقفوا أمامها ساجدين مقرين بحكمة الله وعظيم قدرته؟! ألم تكفهم آية خلق الإنسان، وكيف أنه خُلق من ماء هو أصل وجود ذرية آدم عليه السلام وعلاقة ذلك بالماء العذب الفرات الذي به قامت هذه الحياة؟

وكعادة القرآن يضرب الأمثال لتقريب المقصد. فالناس جميعا يعلمون أن الزرع مهما طال أمده فمصيره إلى الحصد أو يذهب به ريح عاصف فيصبح حطاما، وكذلك حال كل مخلوق، فبقاؤه في هذه الدنيا له وقت معلوم.

ومهما طال عمر الإنسان، ومهما كان انتفاعه بخيرات الدنيا، فإنه لا شك تارك ذلك كله، أو قد يتركه متاعُ الدنيا، ويرحل عنه، فينظر إلى ما ذهب عنه نظرة حسرة وندم يقلب كفيه ندماً على اغتراره بالدنيا.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً [45] الكهف

والآن، تدبر سياق هذه الآيات من سورة الواقعة، وما حملته من نعم دالة على الوحدانية، وعظيم القدرة الإلهية.

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ [57]

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ [58] أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ [59]

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ [60] عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ [61] وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ [62]

أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ [63] أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ [64]

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلَلْتُمْ تَتَفَكَّهُونَ [65] إِنَّا لَمُغْرَمُونَ [66] بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ [67]

أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ [68] أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ [69]

لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ [70]

أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ [71] أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ [72]

نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ [73]

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ [74] الواقعة

وبعد الأمر بتسبيح الله تعالى، وتنزيهه عن كل عيب ونقص، يربط الله تعالى بين حجية "دلائل الوحدانية"، وحجية "الآية القرآنية" على العالمين:

فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ [75] وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [76]

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ [77] فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ [78] لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ [79]

تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [80] الواقعة

تدبر هذا القَسَم، الذي هو شهادة من الله تعالى على التفاعل القائم بين "الآيات الكونية"، و"الآية القرآنية"، والمثبت لوحدة مصدرهما، وحجيتهما.

إنها آيات وحقائق لا تنكرها الأنفس السوية، ولكنه التقليد الأعمى لميراث الآباء الذي يقف دائما حجر عثرة بين هذه القلوب وخضوعها للحق.

لقد جعل الله الليل سكنا لاسترداد نشاط الإنسان الذي يرهقه عمل النهار. وجعل النهار مبصرا ليعينه على الرؤية والحركة وانتظام أمر الحياة.

ولولا الضياء لاضطربت أحوال الناس وتصرفاتهم، ولولا دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس ما تعاقب الليل والنهار.

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ [13] فاطر

تدبر العلاقة بين بيان الله تعالى لدلائل الوحدانية في الآفاق والأنفس وبين الأمر بعبادته وحده والخضوع والتسليم له.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ [14] فاطر

ثم يبين الله تعالى أن مبدع كل هذه الآيات، ومنزل كل هذه النعم، هو الله الغني رب العالمين.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ [15] فاطر

إن من فساد القلوب تشبيه قدرة الخالق عز وجل بقدرة المخلوق، هذا الفهم الذي أقام الكافرون على أساسه شركهم. فيأتي الحوار المنطقي من الله يحمل معه البرهان على فساد هذا الفهم.

أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا [27] رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا [28] وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا [29] وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا [30] أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا [31] وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا [32] مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ [33] النازعات

إن نعم الله تعالى التي لا تحصى، تدل على أن منزلها هو منزل هذه "الآية القرآنية" ولكن أكثر الناس لا يشكرون!!

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ [61] غافر

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ [62] كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ [63] غافر

تدبر قوله تعالى: "ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ". ولكن، مع علم الناس بما في سكون الليل من نعم..، وإعادة التوازن لأجسادهم واستجماع قواهم وإعادة ذاكرتهم إليهم مرة أخرى، فإنهم لم يوظفوا آليات عمل قلوبهم للتعرف على ما في هذا الكون من دلائل الوحدانية، فنسبوا إلى الله الولد، وهو سبحانه الغني عن الولد.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ [67] قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ [68] يونس

إن السياق القرآني يقيم الدليل على استحالة أن يكون لله ولد أصلا، فلم يقل الله تعالى: "قالوا اتخذ الله مولودا" لأنه سبحانه يريد أن ينفي أصل الفكرة، لذلك لم يناقش القرآن من الأساس مسألة أن يكون لله تعالى مولود، وذلك لاستحالتها.

لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ [4] الزمر

ومن نعم الله تعالى على الناس أن جعل سطح الكرة الأرضية منبسطاً صالحاً للحياة والعمل والسفر. وجعل بناء هذه الكرة الأرضية وفق منظومة متماسكة تعمل وفق قانون إلهي ثابت محكم لا ينهار ولا يختل توازنه. فقال تعالى:

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [64] هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [65] غافر

تدبر قوله تعالى: "ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"

إن المنطق القرآني لا يخاطب إلا القلوب السليمة، تلك التي تحررت من أغلال التقليد الأعمى فعرفت ربها الذي خلق، والذي هدى وحكم وشرّع.

لذلك كان على الإنسان أن يتقي ربه ويطيعه ويخشاه، ويسعى في الأرض وفق أسباب الرزق التي أمره ربه أن يأخذ بها.

إن هناك من يرى في سعة رزقه تكريما له ورضا من الله تعالى، فإذا ضيق الله عليه رزقه اعتبر ذلك إهانة من الله تعالى وسخطا.

فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ [15] وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ [16] الفجر

إن المسلم يعلم أن مباهج الدنيا وزينتها زائلة، وأنها ليست الميزان الذي يوزن به رضا الله تعالى أو سخطه. إن الميزان هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح. إنه التفاعل الصادق بين كلام الله عز وجل وواقع الحياة بين الناس.

إن القلب السليم، والمنطق العلمي الحكيم، يوجبان شكر المنعم على نعمه. وكلما كثرت النعم أوجب ذلك كثرة الشكر، أي كثرة العمل الصالح الدال على تحقق فاعلية شكر الله من الناحية العملية. والغريب أن ينسب الإنسان علمه ومعارفه ومواهبه الشخصية إلى نفسه متناسيا المنعم.

فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ [49] قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [50] الزمر

إن جحود النعمة معصية يؤاخذ الله بها الإنسان، لذلك عقب بقوله تعالى:

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ [51] الزمر

وإن توبة الإنسان من المعصية، وشكر الله على نعمه، إقرار من الإنسان بعبوديته لله تعالى، وبأنه سبحانه وحده الذي يملك مفاتيح الرزق، وما على الإنسان إلا أن يأخذ بأسبابه.

أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [52] الزمر

نعم.. "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"

يؤمنون بفاعلية أسماء الله الحسنى، وبأن نعم الله لا تحصى، وذلك لتحقيق الغاية التي من أجلها استخلف الله تعالى الإنسان في الأرض، والتي جاءت سورة الملك ببيان جانب منها، فلنتدبر:

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ [15]

أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ [16]

أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ [17] وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [18]

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ [19] أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَكُمْ يَنصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ [20]

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ [21]

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [22]

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ [23]

نعم.. "قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ"، لذلك ناسب السياق أن يأتي بعد ذلك قوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ [30] الملك

لقد شعرت وأنا أتدبر سورة عبس، أنها جاءت بأسلوب رادع مختلف عما سبق وبكلمات مدوية قوية، وترهيب شديد، وإنذار أخير لهذا الإنسان العاصي المعرض عن خالقه. لقد أردف الله تعالى حجته على الناس، بقوله:

قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ [17] مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [18] مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ [19] ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ [20]

ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ [21] ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ [22] كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ [23]

فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ [24] أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً [25] ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً [26] فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً [27] وَعِنَباً وَقَضْباً [28] وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً [29] وَحَدَائِقَ غُلْباً [30] وَفَاكِهَةً وَأَبّاً [31] مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ [32] عبس

إن دين الإسلام دين النظر والتفكر والتأمل والتدبر..، آليات عمل القلب، وأولو الألباب هم الذين قاموا بتفعيل هذه الآليات، فكانوا أصحاب بصيرة لا يعيشون في غفلة عن نعم الله التي لا تحصى. تدبر قول الله تعالى في سورة آل عمران:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ [190] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [191]

إن أولي الألباب هم عباد الرحمن، الذين عرفوا حقيقة التناغم بين أدوات فهم القرآن: آليات عمل القلب – آيات الآفاق والأنفس – السياق القرآني – اللسان العربي المبين – منظومة التواصل المعرفي، وكيف تتفاعل لاستلهام عطاءات "الآية القرآنية".

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً [63] وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً [64]

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً [65] إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً [66]

وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً [67]

وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً [68] يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً [69] إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً [70]

وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً [71]

وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً [72]

وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً [73]

وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً [74] أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً [75]

خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً [76] قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً [77] الفرقان

إن أولي الألباب، هؤلاء الذين تحلوا بتلك الصفات، لا يجادلون في الله بغير علم ولا يتبعون ميراث آبائهم الديني بغير هدى من الله تعالى. فانظر كيف ربط السياق القرآني بين دلائل الوحدانية ونعم الله التي لا تحصى، وبين صفات المكذبين المشركين الذين يجادلون بالباطل.

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ [20] لقمان

إن المجادلين في الله، المكذبين بآياته، يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق وهو الرازق...، إلا أنهم لا يتوجهون إليه وحده بالعبودية، ويشركون معه آلهة أخرى أسوة بآبائهم الذين ورثوا عنهم ملة الشرك.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [21] لقمان

لقد جاء القرآن يبين للناس أن من أقوى المعارف التي تواصلت بينهم، والتي ترسخ في قلوبهم، وتحكم وجدانهم وحركة حياتهم، هي ميراث آبائهم الديني، الذي يرثه الإنسان منذ طفولته كمكون أساس من مكونات إيمانه. لذلك كانت أكبر عقبة واجهت دعوة جميع الرسل هي تمسك الناس بهذا الميراث الديني، واعتباره الدين الحق واجب الاتباع. فجاء القرآن يحذر من اتباع الآباء بغير علم ومن الإلف والعادة الخاليين من التفكر والاعتبار ويبين أن العلاج يكمن في إسلام الوجه لله والاستمساك بصراطه المستقيم.

وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ [22]

وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [23] لقمان

إن القضية الأساس التي تدور حولها موضوعات القرآن الحكيم هي أصلا قضية منطقية: إن الذي خلق..، هو الذي يهدي..، وهو الذي يحكم ويشرع..، وإن إسلام المرء لا يقوم إلا على الفهم الواعي لهذه الحقيقة وبدونها ينحرف الناس عن شريعة ربهم إلى شرائع آبائهم، التي ما أنزل الله بها من سلطان!!

إن التفاعل التام، والتناغم المحكم، القائم بين آيات الآفاق والأنفس، وآيات الذكر الحكيم، هو الحجة البالغة، والبرهان المبين، على أن لهذا الكون إلها يتصف بصفات الكمال المطلق، ما علمها الإنسان وما لم يعلمها، وأنه قد أنزل شريعة خاتمة، تحمل للناس جميعا الخير كله في الدنيا والآخرة، تشهد بذاتها بصدق من حملها وبلغها للناس رسول الله محمد، عليه السلام. فهل سلم له قومه بذلك، أم وقف ميراث آبائهم عقبة كؤوداً أمام إسلامهم؟!

إن اتباع ميراث الآباء، القائم على إلباس الحق الباطل، اتباع أعمى، يحجب القلوب عن نعم الخالق، وعن دلائل وحدانيته التي لا تحصى، وعن منهجه القويم وصراطه المستقيم. فماذا كانت حجة هؤلاء المكذبين لدعوة خاتم النبيين؟!

أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ [21] بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ [22]

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ [23] الزخرف

لقد عاش المكذبون في ظلمات بعضها فوق بعض، لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، ولم يتدبروا آياته، لم يعتبروا بمصير من قبلهم، ولم ينزهوا الله عما لا يليق به فَحَرَموا أنفسهم الهدى لأنهم لم يأخذوا بأسبابه.

قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ [24] فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ [25] الزخرف

خلاصة الدراسة

إن شهادة "لا إله إلا الله"، في حقيقتها شهادة علمية، تقوم على وقوف الإنسان على دلائل الوحدانية المثبتة أنه لا إله لهذا الوجود إلا خالقه ومبدعه، الله سبحانه وتعالى. لذلك كان على الإنسان أن يقيم هذه الشهادة على أساس قناعته الذاتية بمضمونها وليس تقليدا ومحاكاة لغيره، بغير علم.

فإذا أقام الإنسان شهادة التوحيد على هذا الأساس، فإنه سيصل حتماً إلى الترابط المحكم بين دلائل الوحدانية، وآيات الذكر الحكيم، الأمر الذي سيجعله يؤمن بحجية "الآية القرآنية"، وقطعية ثبوتها عن الله عز وجل، إيمانا علميا يقينيا، قائما على الدليل والحجة والبرهان، وعلى منهج الاستدلال العقلي.

إن مجيء رسول الله محمد، عليه السلام، بآية عقلية خالدة، في حقيقته دعوة لحرية الفكر والتجديد والإبداع، فـ "الآية القرآنية" واحدة ومع ذلك خوطب بها الناس في عصر الرسالة، بإمكاناتهم العلمية والمعرفية المحدودة، ويخاطبون بها إلى قيام الساعة وفق إمكاناتهم المتقدمة وعقولهم المتطورة.

وإذا كان المنهج العلمي يرحب باجتهادات السلف، ويعترف لهم بالفضل على ما بذلوه من جهد، وما قدموه من عطاء، إلا أنه في الوقت نفسه منهج فعال يثق في قدرة الإنسان على العطاء المتجدد، بما يفوق جهود علماء السلف.

لقد حملت "الآية القرآنية" برهان صدقها في ذاتها، وبتناغمها وتفاعلها مع دلائل الوحدانية. ولم تأت "الآية القرآنية" آية حسية، تعمل فقط في حياة رسول الله ثم ينتهي مفعولها بوفاته. لقد جاءت آية عقلية علمية، تعمل بتفعيل آليات التفكر، والتعقل والنظر..، آليات عمل القلب، ليقف الناس على الدلائل المثبتة لصدق الله فيما أنزل وصدق رسوله فيما بلغ، فلا يسع الناس إلا الإيمان بها.

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [53] فصلت

فهل وقف المسلمون على السنن الإلهية الحاكمة لتوازن هذا الكون، والتي هي نفسها القوانين والسنن الإلهية الحافظة لتوازن وفاعلية "الآية القرآنية"؟!!

إن من مقتضى الإيمان بأن هذا القرآن، هو آية رسول الله محمد، عليه السلام الدالة على صدق بلاغه عن الله، أن يتحرك المسلمون في حياتهم:

. بقلوب تفاعلت مع دلائل الوحدانية في الآفاق والأنفس.

. بقلوب علمت عظمة ربها وأقرت بوحدانيته وحاكميته لهذا الكون.

. بقلوب سجدت وخشعت لفاعلية أسمائه الحسنى.

. بقلوب حية سليمة، تحمل وسائل إدراك، وآليات عمل فاعلة غير معطلة.

فأين هذه القلوب التي إذا تفاعلت مع هذه "الآية القرآنية"، وجدت سبيل نهضتها وذلك عن طريق قراءة هذه "الآية القرآنية" قراءة جديدة؟!

. قراءة تحقق مقتضيات شهادة أنه "لا إله إلا الله".

. قراءة تثبت أن هذا القرآن هو كلام الله يقينا، وآية رسوله، عليه السلام؟!

. قراءة تقيم فقها قرآنياً معاصراً، يستمد أصوله وقواعده من عطاء "الآية القرآنية" المتجدد مع مقتضيات وإمكانات كل عصر، يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لا بإذن آرائهم الفقهية المذهبية المتصارعة؟!!

إن الذين أسلموا في عصر الرسالة أقاموا إسلامهم على التصديق الكامل بفاعلية هذه "الآية القرآنية"، وتناغمها مع دلائل الوحدانية. لقد أخلصوا دينهم لله تعالى وأقاموا إسلامهم على العلم الكامل والمعرفة اليقينية بخصائص الألوهية فقدروا الله حق قدره وعبدوه حق عبادته فشهد الله لهم بالإيمان ووعدهم حسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

لقد كان المسلمون أمة واحدة، تحمل كتاب ربها "آية قرآنية"، لا يكتمل إسلام المرء إلا بالإيمان بها، والعمل بأحكامها، ولم يفهموا أنها مجرد شعائر تقام في أوقاتها صلاة وزكاة وصياما وحجا.

لقد فهم المسلمون، قبل ظهور الفرق والمذاهب المختلفة العبودية في إطار فاعلية "الآية القرآنية" المعاصرة لهم، ممتدة العطاء على مر العصور، وذلك سلوكا عمليا في جميع مناحي الحياة.

والسؤال: هل كانت "الآية القرآنية" وراء أزمة تفرق المسلمين، وهم يعبدون إلهاً واحداً ويتبعون رسولاً واحداً، ويعلنون أنهم متمسكون بكتاب الله وبسنة رسوله؟!!

إذن.. فكيف سيواجه المسلمون هذه الإشكالية؟! ومتى سيستطيعون إثبات أن هذه "الآية قرآنية" آية عالمية، نزلت ليقوم المسلمون بتفعيلها في حياتهم أمة واحدة؟!

وهل يمكن أن يقوموا بمسئوليتهم، في الشهادة على الناس، وإخراجهم من الظلمات إلى النور وهم أصلا يعيشون في ظلمات الفرقة والتخاصم، فرحين بمنابر دعوتهم المذهبية؟!

وهل عندما حذر الله تعالى أتباع الرسل من هجر كتابه، واتباع ما وجدوا عليه آباءهم، هل كان هذا خاصا بملة معينة، كاليهود أو النصارى..، ولا علاقة لأتباع رسوله الخاتم بهذا التحذير؟!

إن العقبة الكؤود التي وقفت أمام دعوة جميع الرسل، هي مرض التقليد الأعمى واتباع الآباء بغير علم، مرض الألفة الآبائية:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ [170] البقرة

إن الحد الفاصل بين وقوع الإنسان في أسر [الآبائية] وبين تحرره من هذا الأسر هو بلوغه النكاح، وقدرته على تبيّن الرشد من الغي، وتحمله مسئوليته كاملة أمام الله تعالى، وإقامة دينه على التوحيد الخالص لله عز وجل.

وإن الناظر بعين البصيرة في أحوال الناس يجد أن الغالبية العظمى منهم لا يقفون عند مرحلة بلوغ النكاح، لتبين الرشد من الغي، وإنما يظلون في أسر منظومة [الآبائية] ويموتون على ذلك.

وليسأل كل إنسان نفسه: عند أية مرحلة من مراحل عمره استطاع أن يعيد النظر في مذهب آبائه الديني، فقبله أو رفضه عن قناعة ذاتية؟! وإذا رفضه فماذا كان موقف آبائه وعلماء مذهبه منه؟!!

إنها إشكالية عامة تشمل الوجود البشري كله، فهل سيقيم الله تعالى الحساب في الآخرة على أساس هذا التدين الوراثي الذي فُرض على الناس فرضا يوم ولادتهم؟!

وإذا كان الأمر كذلك، فما أهمية هذا الحساب إذن وقد عاش الناس أسرى آبائهم لا حول لهم ولا قوة؟!

ثم ما أهمية إرسال الرسل إذا كان الناس جميعا سيلقون بأوزارهم على آبائهم يوم القيامة؟!

ومن منطلق الفهم الواعي لفاعلية "الآية القرآنية"، خلعت ثوب [الآبائية] المذهبية وأقمت إيماني على أساس علمي، أشهد أنه لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن هذا القرآن هو آية الله التي أنزلها على هذا الرسول الكريم عليه السلام، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

وإن على المسلمين كافة، انتزاع أنفسهم من منظومة [الآبائية] المفرقة لوحدتهم والتي أوقعتهم في معصية "التفرق في الدين"، التي حذرهم الله تعالى منها، وأن يعودوا بأنفسهم إلى عصر الرسالة، عصر الأمة الواحدة، التي لم تعرف يوما تفرقاً ولا تخاصماً.

إن أزمة تفرق المسلمين وتخاصمهم، وتشرب قلوبهم ثقافة [الآبائية] المذهبية تنذر بخطر عظيم يهدد مستقبلهم وشهادتهم على العالمين، فكان لابد من الوقوف على الأسباب الحقيقة لظهور هذه الأزمة؟!

فإلى الدراسة التالية، ومنظومة "الآبائية"، وتواصل "الفتنة الكبرى"

الفهرس

الموضوع — الصفحة